# فتاة البسكويت

زينب علي البحراني

البسكويت / قصص

زينب علي البحراني

الطبعة الأولى ، ٢٠٠٩

دار اكتب للنشر والتوزيع

القاهرة , ١ش المعهد الديني ، المرج

هاتف : ٠٢٢٤٤٠٥٠٤٧

موبايل : ٠١٢٩٢٥١٥٩٢ - ٠١٨٢٣٦٣٠٣٥

**E – mail** : dar_oktob@gawab.com

**المدير العام :**

يحيى هاشم

**لوحةُ الغلافِ الأماميّ للفنّانةِ :**

أمل سعود (السّـعُوديّـة)

**تصميمُ الغلافِ الأماميّ :**

موسى الموسوي (البحرين)

رقم الإيداع : ٢٠٠٩/٢٥١١٢

**I.S.B.N**:٩٧٨- ٩٧٧- ٦٢٩٧- ٠٨- ٦

**جميع الحقوق محفوظة©**

# فتاة البسكويت

قصص

زينب علي البحراني

الطبعة الأولى

٢٠٠٩



دار اكتب للنشر والتوزيع

# فتاةُ البسكويت

لستُ متأكدًا من أن لبابَ جمجمتي ما زال على قيد العقل والإدراك. ربما كنتُ مجنونًا حقا مثلما كان توبيخ والدي يؤكد خلال أيام صباي ومراهقتي .. وربما كانت جمجمتي مغارة استولى على خوائها طيش عصابة من شطار شرار الجان والعفاريت، لتمسي مسكنًا لإجرام عبثهم بأفكاري وحياتي دون أن يكون لي في ذلك حولا ولا قوةً، كما كانت أمي ترى في صغري .. وربما كنت رجلا عاقلا أو بعض عاقل، لكن ما لا شك فيه أنني إن لم أصل إلى طريق إدراك سر ما يحدث لي فإنّ ما تبقى من بقايا عقلي سيتزلق مسرعا إلى هوَّة عالم الجنون أمام عجز سيطرتي على حواسِّي !!..

منذ أسابيع مضت على زمني كالدُّهور وأنا أحارب بكل قواي النفسية التي بلغت حدود الاحتضار صورة وجه تلك الحسناء التي استولت على أحلام نومي ويقظتي في الليل والنهار، دون أن تستطيع مُخَيِّلَــتي من أطياف عينيها البراقتين

المفعمتين بالأسرار فكاكًا!!.. ولو أن لساني أسرف في تهوره إلى درجة تبلغ إخبار مخلوق ولو ببعض سرٍّ تلك الفتاة التي تجثم صورها على صدري كلعنة شريرة تصرُّ مخالبها على التشبُّث بروحي حتى تمتصَّ الرمق الأخير من عافيتها دونما رحمة لكنتُ اليوم ولا شكَّ في عداد المتهمين بالجنون، وربما صار مرقدي جارا لمراقد نُزلاء إحدى المصحات النفسية أو مستشفيات الأمراض العقلية ذات الحجرات المتخمة بذوي الأرواح التي دمَّرها العطب أو الانكسار .. لكن يبدو لي أن مقدرة لساني على ضبط نفسه عن إفشاء ذاك السر الذي مازال ينهش راحة نفسي طوال المدة الماضية هو دليل على أنني ما زلت محتفظا ببعض بقايا عقلي حتى اليوم، وإن كنت لا أضمن حتى أن أستيقظ غدا قبل أن يزول ما تبقّى من نعمة يبدو أنها صارت تعاف ارتداء دماغي الذي ضاق عليها !!..

ما زلت أبذل أقصى طاقة جهد فرشاتي وألواني وحتى أقلامي الرَّمادية لاستحضار روح صورة تلك الفتاة على أوراقي البيضاء ولوحاتي الخرساء بمحاولات لا يفارقها الفشل، فيتضاعف بها إرهاقي دون أن تصل فرشاتي إلى نتيجة تسعف بقايا تفاؤلي، وتدافع عنه أمام شراسة جبروت اليأس والإحباط .. من أين

تسللت لعنة ذاك الوجه الأخّاذ في جماله إلى مُخَيِّـــلَـــتي التي غدت أسيرةً لهيمنته المطلقة دون أن أدري كيف حدث ذلك؟؟.

كلّ ما أتذكَّرُه هو أنني كنت وحيدًا في مرسمي قبل أسابيع أحتفل مع لوحاتي بمناسبة إتمام لوحتي الأخيرة ، التي التهمت أياما من زمني وعُصارة أحاسيسي كي تنضج ويصرخ صمتها البديع بصوت الحياة. وهمس فحيح شيطان الغرور لحظة لسروري بأن ميلاد مثل هذه المعجزة الفنية خلال أيام لَهُوَ معجزةٌ تكاد تفوق تلك المعجزة ذاتها .. تمددتُ على الأرض مرهقاً بأنفاس عميقة متتابعة وذراعين ممدودتين ، وأنا أحدق في دفء عناق الألوان على اللوحة بسعادة مفعمة بأعمق درجات اللذة الروحية التي تحلق بمشاعري في فضاءات من نشوة لا حد لها كلما ولدت ثمرة من ثمار التزاوج بين وجداني وأصابعي على القماش أو الورق. أغمضت عينيَّ لحظة، فسمعت دقات قلبي كضربات مجنونة على طبل إفريقي ضخم .. ذكّرني إرهاقي أن جسدي يشتاق إلى النوم الذي نسيه لأيام . وتذكرتُ أنه كذلك بحاجة إلى الطعام الذي لم يذق طعمه منذ أيام مضت دون أن أشعر خلالها بالجوع أو العطش أو النعاس، حين كنت غارقا في بحر نشوة رقصات الفرشاة والألوان ..

قررت أنني أستحق أن أكافئ نفسي اليوم بكوب ضخم من الشاي الساخن الذي شرعت في إعداده بعد أن استرضيت بقايا يقظتي بحمام دافئ، وبحثت عن شيء أسترضي به معدتي كي لا

أموت على غفلة من انتباهي لجوعي ، فلم أجد غير أقراص قليلة من الكعك الجاف المُحَلّى في قاع علبة معدنية ملونة كانت مُتخَمةً بأقراص الكعك حين اشتريتها ..

وضعتُ كوبَ الشاي والصحن الصغير الذي ملأته بأقراص الكعك المُحلى على منضدة خشبية صغيرة ملاصقة للأريكة الطويلة التي اتخذتها فراشا لي في حجرة مرسمي، وأسندت ظهري إلى وسادتي التي تخفي رأس الأريكة الخشبي الصلب، بينما مددت ساقي إلى الأمام .. فكرت للحظة أنني كنت رجلا محظوظا خلال الأيام القليلة الماضية فوق حظي بسلامة ميلاد لوحتي الجديدة، لأنني لم أسمع شيئا من أخبار التلفاز أو المذياع التي تجعل نفسي تطفح بالكآبة، و لم يتطفل على سلامي الرُّوحي الداخلي شيء من أخبار عامَّة الناس الذين يشحنون نفسي بالغيظ والانفعال بتصرفاتهم .. وشعرت أنني في هذه اللحظة رجل تمس روحه بأحاسيسها أقصى ذُرى السعادة ..

رشفتُ رشفة من الشاي الساخن، وبدأت أقضم أقراص الكعك المُحلى بشهية بدأت تسترد وعيها أكثر أمام إغراء طعم السكر. كان ذهني خاويًا من الأفكار وكانت عيناي مغمضتين باسترخاء .. وفجأة رأيت صورها قد تسللت إلى قعر دار مُخَيِّـــلَـــتي على غفلة من يقظتها، واحتلّتها دون استئذان!!..

لستُ أعرفُ تلك الفتاة، و لم أرها من قبل تمشي أمام بصري على أرض الواقع، ولا استضافتها يوما أحلام نومي أو يقظتي قبل هذه المرة!! .. لم تكن هي الأولى التي زارت مُخَيِّـــلَـــتي من بين مخلوقات الله جميعا ولا من بين الفتيات الحسناوات، فلطالما كانت مُخَيِّـــلَـــتي خصبة بميلاد صور الناس والمخلوقات جميعا، ولطالما كان ذهني مستودعًا يحتضن مخزونًا من صور أحلام يقظتي بالكنوز والخرافات والأمنيات والسخافات، وما قد لا يخطر على مُخَيِّـــلَـــة أو قلب بشر سواي .. لكن صورة تلك الفتاة التي أشعلت النار في إحساسي قد حولت كل ما سبقها من مخزون الصور في مُخَيِّـــلَـــتي إلى رماد وهمٍ في لحظة دون أن تستأذن أو تعتذر أو تأبه، بل وربما دون أن يكون لها حول ولا قوة فيما حدث لها هي وما حدث لي بسببها !!..

بَـــدَتْ لي تلك الفتاة حيَّةً سجينةَ جُمودِ المشهد الذي هي فيه إلى الأبد. أحسستُ أنها تودُّ لو تصرخ، أو على الأقل أن تبكي بصوت عال، لكنها كانت خرساء، أو ربما كانت حنجرتها مبحوحة عاجزة عن البوح بصوت بعض مكنونات نفسها ولو بالصراخ أو الضحك أو حتى البكاء السافر الذي لا يخشى الملامة! .. لذا لم يكن بوسعها غير أن تنتحب همسًا بدموع لا تنضب من عينين واسعتين برّاقتين بقزحية بُنية ورموش طويلة فتاكة السحر، في وجه ممتلئ بوجنتين حمراوين تجاوزت

حمرتُهما حدودَ حمرة العافية إلى المرضِ، وشفتين مطبقتين حمراوين حمرة البكاء. ولشعر رأسها لونٌ بُنّيٌّ غامق متوسط الطول ذو قَصَّــة بديعة، تستدير أطراف أذيال خصلاته على شكل دوائر أو أنصاف دوائر إلى أعلى لتشبه في ثورها صورة التهاب النار.. ترتدي ثوبا بُنّيًّا جميلا وشالا عسليَّ اللون معقود الطرفين عند منتصف صدرها الذي تزينه قلادة ذهبية براقة لم تتمكن بصيرتي من قراءة الرموز المنقوشة عليها، رغم إن تلك الفتاة التي تسكن مُخَيِّــلَــتي بدت أقرب إلى بصري من أقرب صور الواقع .. وبين يديها وعاء ضخم فاض بأقراص البسكويت التي كانت الفتاة لا تكف عن تناولها طوال الوقت، كآلة خرساء مجبرة دون لحظة توقف !.. كانت أحاسيسي تلتقط موجات مشاعر فتاة البسكويت تلك بتضخم يجعلني أحس بما كانت تحس على الرغم مني .. شيء ما لا أفهمه يقسرها على أن تحشو فمها بأقراص البسكويت التي لا تنضب أبدا دون لحظة توقف لتلتقط أنفاسها على الأقل، رغم إنها قد شبعت حتى التخمة وما عادت معدتها وروحها تطيق تناول المزيد .. لكن ليس أمامها غير أن تبكي وتملأ فمها بالبسكويت، ثم تبكي وتملأ فمها بالبسكويت، ثم تبكي وتحشو فمها حشوا بالبسكويت إلى أجل مجهول لها ولِحَيرَتي!! ..

ربما كانت على هذه الحال منذ أيام أو أعوام، وهي اليوم تكاد تختنق ويستنجد صمتها بي دون أن أملك لها حولا ولا قوة. إنها تنتحب هامسةً بحرقة وهي تتعذب بحزن دون أن

تستطيع الفكاك من أسر هذا المشهد وسيطرة وعاء البسكويت الذي لا يجوع أبدا، بينما هي جائعة رغم كميات البسكويت الضخمة التي بين يديها والتي تحشو معدتها، ورغم إنها تكاد تتجاوز حدود السِّمنة مُسرِعَةً نحو البدانة !!.. تريد أن تتقيأ، أن تتنفس، أن تستحمَّ، أن تذهب إلى المرحاض. أن تروي ظمأ أحشائها بالماء وتشرب الشاي والقهوة والعصير، وأن يمسَّ لسانها طعم أيِّ شيء آخر غير ذاك البسكويت حتى لو كان تراباً .. تريد أن تقفز من جمودها في ذلك المشهد لتركض إلى البحر أو تحلق في السماء بحُــرِّيَّـــة ، لكن لعنةً ما يبدو أنها أكبر وأبعد من حدود إدراكي تحرمُها من ذلك كله وتجعلها تتعذب بصمت، ثم اختارتني لأكون توأم العذاب معها بعد أن احتَـــلَّت مُخَيِّـــلَـــتي واستحالت بآلام فجيعتها هاجساً يطارد حواسي، ويوسوس لي وسوسة هي أقرب إلى صوت الإكراه بأن أحرِّرَها من مُخَيِّـــلَـــتي لأسكب صورتها بألواني على بياض إحدى لوحاتي القماشيَّـــة، كي تتخذها مسكنًا لها .

كان ذاك الهاجسُ طفلاً في يومه الأول، لكنه سرعان ما استحال إلى ماردٍ فارع الجبروت يمضغ أحاسيسي دونما رحمة، كان صدى صمت تلك الفتاة يصرخ في أعماقي بإلحاح. وحين كنت آوي إلى فراشي ليلاً ، وخلال لحظات استيقاظي الأولى

من النوم كنت أسمع نحيبها المبحوح أقرب وضوحا إلى سمعي من نحيبي لو كنت أنا المنتحب، فينتابني هلعٌ غامضٌ ، ويتفاقم إحساسي بالعذاب والشعور بالذنب دون ذنب ارتكبته..

حاولتُ أن أحرِّرَ ذهني من تلك الصورة بصبٍّ ألوانها على القماش والأوراق لكنَّها هزمتني ونالت من ثِـــقتي بنفسي .. رسمتُ لها لوحات لا أعرف عددها لكنها جميعا لم تكن تشبهها في النهاية ولو بعضِ الشَّبه، وحاولت أن أرسُـــمَها على ملابسي وفوق جلد يدي لكنني فشلت في التخلص من ذلك الجنين الذي يتضخم في داخلي بتمرُّد مجنون ويكاد يمزقني .. لم يحدث لي ذلك من قبل، لم يحدث أبدا أن انتصر على اتحاد أصابعي وفرشاتي وألواني مشهدٌ أو صورةٌ قبل هذه اللعينة التي انغرست في ذاكرتي، ولم يعد بوسعي حتى نسيانها لأعود إلى سابق عهد حياتي التي يشبه الفرق بينها وبين ما أعانيه اليوم الفرق بين سرور نشاط أيام الصِّحَّةِ و بؤس إعياء أيام المرض الذي بلغ حدَّ البكاء يأساً .. صرتُ عاجزًا عن رسمها ورسم أيِّ صورة أخرى سواها، وفقدت شهيتي لممارسة لذة الرسم التي أدمنتها أحاسيسي منذ نعومة أظفار الطفولة، فاعتقلت أدوات الرسم جميعًا في أدراج خزائن حجرة المرسم، وقررتُ ذات ليلة يأس أن أرميَ يمينَ الطلاق على الألوان إلى الأبد، ثم ألقيتُ بجسدي على

الأرض لأغرق في نوم عميق لم يذق إرهاقي له طعمًا منذ زمنٍ ما عدتُ أذكره..

وحين استيقظتُ في الصباح لم أسمع صوت النحيب الهامس، ووجدت كَـــفَّـــيَّ وذراعيَّ وملابسي ملطخةً بالزيت والألوان، بينما كانت فتاة البسكويت التي أرهقتني تحتلُّ مساحة ما كان قبل نومي بياض الجدار المقابل لي، وعليها إمضائي .. لكنها كانت تحدِّقُ فيَّ بعينين ليس لهما شبيه، بعيني تلك التي كانت تسكن مُخَيِّـــلَـــتي ، وحين اقتربتُ منهما .. وجدتُهما نسخةً مِن عينيَّ !!!!..

# لا أريدُ إلا وِسادتي !

لا أريدُ شيئًا إلا وسادتي .. أنام، أموت، لا فرق .. المهمُّ أن يُغمى على يقظتي من إحساسها بهذا العناء الذي يمضغ روح كلّ خليَّة مني ..

قلتُ لأمي وأنا أتوكأ على بقايا قوَّة جسدي بصعوبة :

- لا أشعرُ برغبة في الطعام، تناولي عشاءك بالعافية ولا تهتمِّي لي يا أمِّي.

جاءني صوتُها طافحًا بآخر حنان بقيَ لي في حياتي وأنا أدخل حجرتي :

- لكنك لم تذق لقمة منذ الصباح يا بنيَّ !.

لم أجد طاقة على قول شيء، كل خلية من خلايا كياني تنزف إرهاقا كنت فيه مستعدا للنوم بظهر يستند إلى الجدار.

انهار جسدي على فراشي دون أن أستبدل ملابس خروجي للعمل بملابس النوم. لا أريد شيئا سوى إخلاص دفء وسادتي

لي، حيث مساحة حلم مختلسة عن رقابة فحيح اليأس المتربِّص بواقعي، صدر مازال يتسع لترف طوفان أحزان القلب و بقايا فُتات الذاكرة دون أن أخشى عليه من بعض مصائب أسرار نفسي، أو أخشى عليها منه، حجرة ثورة اعتراف خيالي الليلي بحبي وحقدي النهاري العاجز.

أحدِّقُ في السقفِ بقهري والنومُ يسخرُ من إرهاقي بموعد مؤجَّل، وذاك الصراع الصارخ في جوف جمجمتي بين مخلوقات نهارية أحبُّها وأكرهها يحتلُّ مساحات النوم بجبروته دون أن أقوى على طرده .. لو أقوى على اقتلاع وجه مصَّاص الأرواح الذي يجلس على مقعد منصب المدير في المؤسسة التي يأكل العملُ فيها أيامي من الصباح إلى ما قبل الغروب . ألهث طوال النهار لإنجاز عملي فوق أعمال التافهين من أقاربه الذين دللتهم صلة قرابتهم بوظائف لم يكن ثمنَها ذكاءٌ ونشاطٌ وشهادة جامعية، كالثمن الذي دفعته ودفعت ضعفه من ماء وجهي لأجد عملا يحثني أجره بالكاد على تناسي وسواس الحاجة لسرقة مال غيري، كي نأكل أنا وأمي نصف المُبصرة ما يُقيم بالكاد أوَدَ كرامة حياتنا ..

لو كنتُ أقوى على طرده من رأسي، وطبع وجه حذائي على مؤخِّرته بكلِّ قوَّة حقدي على تسلطه لأنام قبل اقتراب

ساعات الفجر، لكنت استرحت، لكن سيِّدَ الأوغاد ذاك أصرَّ بعناده على التشبُّث بمُخَيِّـــلَـــتي حتى بعد أن استنجدت بصورة وجه سيدة الأقمار التي يسكن مكتبها الحجرة المجاورة لحجرة عملي في المؤسسة. تضخَّم وجهُه أكثر وأنا أتذكره وهو يتعمد مغازلتها أمامي هذا الصباح ، بينما كانت أعماقي تغلي بمشاعرِ حقدٍ ختمَ عليها جبنُ صمتي الذي ملأني احتقارًا لحياتي وبلاهة وجودي المعجون بالتعاسة ، وتمردَت في صدري شهوة تشتاق لنصب مشنقته في وسط شارع قلب المدينة .

هو الغبيُّ الأبله بكرشه الضخمة وأوداجه المنتفخة، يقول لها أمامي ما يقول بصوت بتر من الجشع، بينما روحي تتقلب في لهفتها للبوح لها بغرام عامين أخرسين، وترتدُّ بخذلانها كسيرة من وراء جمود لساني البائس في كلِّ مرَّة، وأنا أذوب في حياة يأسي وإحباطي كلَّ يوم تراني فيه دون أنْ تبصر السرَّ المرسوم لها في بؤبؤ عيني.. ماذا أقول لها وأنا ليس بوسعي حتى أن أهبها مكانا تسكن فيه سوى قلبي ؟؟..

ترى هل عاد صاحب الدار التي نسكنها اليوم ليتوعَّد أمي بنفضِ داره منَّا ومن ملابسنا إن لم ندفع له ضعفَ ما كنا ندفعه طوال الأعوامِ العشرة الماضية، كما أنذرها يومَ أمسِ وقبله ؟ ، وهل عاود زوجُ أختي ضربَها أمام طفليْها أم جعل تهديدي جنونَ قسوةِ يده تتوب عنها ؟؟ ..

( موتي أيتها التساؤلات في هذه اللحظة فأنا مرهق ) .. أين أنت أيُّها السيد النوم كي تغمرني برفاهية سلطانك ليغمى على أوجاع ظهري وعنقي وتساؤلات قلقي وقهري حتى الصباح؟!.

قرَّر عجز إرهاقي عن مغادرة فراشي أن أهمل نداء ظمئي لكوب ضخم من الماء ، أطبقتُ جفني على خيال صورة سيدة الأقمار قبل أن تسبح أحاسيسي في عالم من السواد الهُلاميِّ لحظة، ثم ينطفئ كلُّ ما حولي .

انقضَّ على مسامعي رنينُ جرس الهاتف المجاور لمرقد رأسي، وأيقظ جزءًا مني تكفل برفع سماعة الهاتف إلى أذني، قبل أن أسمع صوت حنجرة مراهقة لشاب بصق حروفه متسارعة وهو يسأل:

- إحم.. هل هذا هو منزل السيِّد نعمان؟

أجبتُ بصوت خائر النشاط :

- عفوًا .. إن الرقم خاطئ .

ثم سارعتُ بإقفال الخط، وقبل أن يغوص رأسي في وسادتي أكثر عاود صوت رنين الهاتف بعثرة خيوط السواد التي لملمتُ أطرافها في جمجمتي، وحين رفعتُ السماعةَ عاودَتْ أذني الحروف المتسارعة بقولها :

-هلّو ! .. هل يمكنني التحدث مع السيد نعمان ؟

أجبت بغيظ نصف مكظوم :

- هذا ليس بيت السيد نعمان ولا نعسان، تأكد من الرقم الصحيح لو سمحت.

وصفقتُ السماعة بتوتر ثم انقلبت للنوم على جنبي الأيمن قبل أن يعاود الهاتف نداءه المزعج مرة أخرى، ثم يتبعه صوت الحنجرة المراهقة الذي صفقت عليه السماعة قبل أقل من دقيقة ليقول بصوت ممطوط :

- هلّووو، هل السيد نعمان موجود ؟

ردَّ عليه صوتُ انفجارِ غيظي المجنون بانفعال:

- قلتُ لكَ هذا ليس بيتَ نعمان ولا نعسان ولا خسران أيها الغبيُّ القذر المغفل، أيُّها الأحمق المنحرف المختلُّ عقليا، صبَّ اللهُ ألفَ صاعقة من الجحيم على رأسك ورأس كلِّ تافه حقير مزعج له مثلُ صوتِـــكَ البشعِ .

بصقتُ على السماعة بحنق، ثم صفعتُ بها الجدارَ بعد أن قطعتُ سلكَ الهاتف مُغتاظاً. عُدت إلى وسادتي مرة أخرى وأنا أشعر برغبة مفاجئة في الضحك بشماتة على أذن حنجرة ذاك الصوت التي تخيلتها تتقلقل بين أطباق الغيظ وخيبة رغبة صاحبها بتطفلٍ أظنُّ أشدَّ الظنِّ أنه يلحُّ عليه بمحاولات الوصول إلى خطٍّ هاتفيٍّ بعناد دون جدوى .. وقبل أن أغوصَ في عمق لذة محيطات النوم تنبَّهت حواسّي على صوت قطرات من الماء توالي التساقط من صنبور مغسلة حمَّام حجرتي. حاولتُ أن

أغمضَ تركيزي عن سماعِ صوتِها الذي بدا لإحساس ذهني وكأنه يقرع بكثافته على عظام جمجمتي، لكن تضخُّمه تمرَّد على محاولاتي بعناد أشدَّ شراسة أجبرني على النهوض من فراشي لإحكام إغلاقها، ثم عدت إلى وسادتي وأمنياتي تتوسَّل بعمق كي لا أضطر لرفع رأسي عنها مرة أخرى، لكنَّ صوت نزيف الصنبور ذا القرعات الرتيبة عاود سخريته من توسُّلات أمنياتي بطرقاته الجبَّـــارة على سقف جمجمتي.. ولم أجد لإخراسِ جنونِ ذاكَ الصوت إلا أن أحشوَ فم حوض المغسلة بكومة من قمصاني المتسخة كي تبتلع القطرات بأصواتها، إلى أن أجد لنزيفها حلاً بعد مجيء الصباح.

ألقيتُ رأسي على صدرِ وسادتي بإرهاق ضاعف تسلله إلى كلِّ خلية من جسدي، وغفوت ربما دقيقة أو أكثر قليلا قبل أن أهبَّ فزعًا من مرقدي على صوت طرقات هستيرية الجنون تنقضُّ متواترة السرعة على باب الدار، دون أن تلتقط أنفاسها لحظة. ركضت إلى الباب بذهول لم ينتبه لخطوات قدمي الحافيتين وذهن ملأه كلُّ فأل سيِّءٍ على وجه الأرض دفعة واحدة، وتحالفت نبضات قلبي اللاهثة بصوتها الذي ينبض متضخِّمًا على طبلة أذني مع ضربات الكفِّ المخبولة على الباب لقمع صوت هتافي وأنا أتساءل عن الطارق بملء حنجرتي دون أن أتمكن أنا من سماع صوتي .. فتحتُ البابَ بهلع متلهِّف لإدراك مصيره، وبعد لحظة دهشة باغَـــتَـــتني بها نسمة هواء باردة احتارت أن تنتهز فرصة الباب المفتوح لتدخل بيتي دون أن

أجد معها أحداً. أدرت عنقي خارج فتحة الباب يمينا وشمالا دون أن أرى مخلوقًا. خرجت لأمشي بضع خطوات من الشارع إلى يمين باب دارنا و يساره كي أتأكد من صدق أقوال بصري فلم أجد في تلك الساعة ولو قطة، وبدا الشارع خاويًا من كل حياة سوى عبث حركة الهواء..أحكمتُ إقفالَ بابِ الدارِ ورجعتُ إلى فــراشي، ووعدت نفسي هذه المرَّة بعدم الابتعاد عن وسادتي قيدَ أنملة ، حتى لو رأيت حجرتي تحترق بما فيها ومَن فيها .. ( أنام إلى الأبد أرحم لأعصابي من أن تُحرَم حظَّها من سويعات نومي الليلية ) .. هذا ما فكَّرتُ فيه قبل أن أطبق جفنيَّ بنبضات قلب مضطربة.

لبثتُ ساعات مُستلقــيًا على فــراشي باسترخاء جثة غضَّة الملامح دون أن يُسبغ سَلطان النومَ عليَّ بأكثر من رُبع بركاته، ولم يكن لنصف يقظة ذهني المرهق أن تدرك تفسيرًا لخليط أصوات ذاك الحشد المجهول من الأبواب والأقفال التي تفتح وتغلق كلَّ دقيقة، والخطوات التي لا تكفُّ عن المشي ذهابًا وإيابًا من حيث لا أدري إلى حيث لا أدري طوال ساعات الليل.

ثم انفجرَ جرسُ بابِ الدارِ فجأةً بصراخ لم يصادف سمعي شبيهًا لعناده من قبل .. دفنت رأسي تحت وسادتي وأنا أصلّي في أعماقي راجيًا أن يكون يأس الكفِّ الرَّابضة على الزر وشيكًا دون جدوى. وبدا لسمعي وكأن تلك اليد قد تيبّسَتْ فوق زر الجرس غير عابئة بالتزحزح، و بينما كنت أغوص برأسي تحت وسادتي أكثر جاءني صوت أمي محاولا إيقاظي برفق :

– قم يا كاظم ، ستتأخر عن عملك يا بني .

قلت لها وأنا أرفع رأسي بأنفاس لاهثة :

– أرجوكِ يا أمي .. أرجوكِ .. دعيني أنام ، فأنا لم أذق طعمَ النومِ لأكثر من عشر دقائق.

أجابت بدهشة :

– ولكنك كنت نائماً منذ الغروب ، لم يوقظك حتى أذان الفجر كما في كل صباح. وهاهي ساعتك المنبهة ترن منذ نصف ساعة دون أن تنتبه على صوتها..ماذا أصابك يا بني ؟!.

عندها فقط تنبَّهَت حواسي إلى أنني كنت مستلقيًا على ظهري دون أن يكون رأسي مدفونًا تحت وسادتي. واستوعبَتْ أحاسيسي أنني وقعت بين براثن حلم ليليٍّ طويل، لا أدري من أي مقطع من بدايات مشاهد الإزعاج التي تسلطت على ساعات ليلتي الماضية كان قد بدأ عرضه. لكن ما أدريه هو أنني استيقظت بإرهاق مضاعف، رغم إن رأسي ربما لم يفارق وسادتي تلك الليلة !! .

## بائعُ الهَـواتِـفِ المَجهُـولُ ..



أنا .. وسمّـــاعة الهاتف ، وصوت صديقتي نينا يعودُ منهمرًا على أذني من أفواه رأس السماعة، كما في كل يوم .. تثاءب في صدري ضجرٌ منافق يجترُّ ما لا تنسى قوله لي بكلمات يكسوها صوت الانفعال كلما التقيت بها، أو التّــقى صوتها بأذني:

( كلُّهم يا مايا، كلُّهم .. كاذبون، محتالون، غشّاشون، أنانيّون، قذرون أوغاد، خونة وبلا ذرَّة فائدة..إنهم صورة بلاء الطاعون على الأرض.. أقسم لك أنهم جميعا هكذا. كل الرجال هكذا، سواء صدقني الناس أم لم يصدقوني .. هل تصدقينني يا مايا ؟؟)

لأنّي عرفتها منذ أيام الطفولة، فأظن أن بوسع ثقتي صفع باب طريق الغوص في لذّة التحليلات الفضولية أمام أنف كل متفلسف نفسيٍّ بخيال يحترف صناعة الظنون الواهمة، حين أفشي أن جميع تلك الشتائم لم تولد على لسان نينا قبل أن يكسر

والدها علاقته بوالدها، ويهجرهم جميعا لأكثر من ست سنوات، سبقت واحدة منها يوم تخلصها من مقاعد الدراسة الثانوية بدرجات لم تحسدها عليها إلا من تعمَّد النجاح نسيانها في ذلك العام .

– مرحبًا .. كيف حالك ؟

صافحَ صوتُها أذني بهدوء لا يَمُتُّ بصلة قرابة إلى ذاك الصوت الذي كان ينقضُّ على سمعي في كل مرة بكلمة (بووووون سواااار)، فيقود يدي لمسح رأس سماعة هاتفي بطرف قميصي، كي أمحو من مخيلتي صورة ذيل سماعة الهاتف المواجه لشفتيها ملطخًا برذاذ اللعاب.. قالت قبل أن ينال ذهني كفاية وقته من الدهشة :

– أتدرين!.. لقد اشتريت قبل يومين هاتفا محمولاً على أحدث طراز .

قلتُ بلهجةٍ مرحةٍ تتقنُ إخفاءَ غيظي من هاتفي القديم ذي الخدوش :

– يا إلهي، كم أنتِ محظوظة !.. مباركٌ .

– باركَ اللهُ في أيامك .. وسأعود غدا أيضا للمحل الذي اشتريته منه كي أجد له حقيبة أنيقة تليق به.

–يا إلهي، هذا مذهلٌ ! .

أجابت بحماس مفاجيء :

- الأكثرُ إذهالاً هو المحل التجاري الذي اشتريته منه ، أؤكد لك أنه لا يوجد معرض آخر لبيع الهواتف المحمولة يمكنه أن يقدم ما هو بمثل جودة خدماته .

بدت لي الدقائق الأربعون التي تشبَّـثت بذيل تلك الجملة نسخةً عن إعلان تجاري طويل يُبث عبر الهاتف. لم يكن صوتها شحيحًا في وصف سحر المعرض الشاسع، ذي الأضواء الملونة التي تخلب أشد الألباب زهداً في متعة التسوق، والهواتف الصغيرة الأنيقة بنماذجها النادرة المرتَّبة في خزائنها الزّجاجية بفَنٍّ ينافس فنّ ترتيب أثمن المجوهرات العالمية. والباعة العباقرة الذين وُجدوا على وجه هذا العالم لتحقيق أعتى المعجزات في عالم الهواتف المحمولة، وعالم التقنيات الرقمية من أقصاه إلى أقصاه. ولم تنس أن تؤكد لي ثلاث مرات على الأقل أن الغالبية العظمى من أرقى ملحقات الهواتف المحمولة لا تُباع إلا في هذا المحل وحده لا شريك له !.. فأكدت لها قبل إنهاء المكالمة بيننا أنني لن أفكر بخيار آخر لذوقي حين أقرر شراء هاتف محمول أكثر شبابا من هاتفي الذي بدأ يحتضر.

بعد يومين، وخلالَ الساعةِ التي كان فيها خطُّ هاتفِ منزلنا الثابت يشبعُ شهيةَ والدتي وخالتي في تبادلِ آخرِ أخبارِ الجاراتِ ،

تراقصَ هاتفي المحمول وهو يترنّم بألحان أغنيتي المفضلة .. نقرتُ زرَّ الموافقة على الرد وقلت بحماسة شابها الفتور في حروف نبرته:

- أهلا نينا ..

- لقد كنت البارحة في معرض الهواتف المحمولة، كي أملأ ذاكرة هاتفي بالمزيد من النغمات النادرة.

قالت على الفور بعد أن سألتني عن أحوالي .. فأجبتها بابتهاج شحنت همة صوتي ليخفي كم هو مصطنع :

- مذهل !.. وماذا عن الحقيبة ؟

- لا .. تلك عدت لشرائها قبل أمس .. وأفكر بالرجوع غدا لشراء سلسلة جميلة أعجبتني من بين ملحقات الهواتف التي يعرضونها.

- صرت تترددين كثيرا على هذا المحل منذ اشتريتِ هاتفك الجديد.

أؤكد لك يا مايا أنه أحد أروع متاجر بيع الهواتف المحمولة وملحقاتها على وجه الأرض.. إن لم يكن الأفضل من بينها جميعاً.. لكن..........

- لكن ماذا ؟ .. هل أسعارهم مرتفعة فوق الحدِّ المعقول ؟ .

أجابت بسرعة :

- لا لا .. أبداً.

تساءلت مجددا بدهشة :

-إذن ؟ .

قالت بعد لحظة ارتباك :

- لا أدري لماذا أحس بأنني أغبى مخلوق على وجه الأرض كلما دخلت هذا المحل.

- لماذا ؟

- لا أدري!.. إنني أتساءل ! .. هذا الأمر يكاد يزج بي في دوامةٍ من الجنون.

قلتُ بمبالاةٍ شحيحةٍ :

- هذا سهل كما أظن، لا تدخلي هذا المعرض مرة أخرى.

- لكنني لا أستطيع.

- لماذا لا تستطيعين ؟! .. إنه ليس المعرض اليتيم في هذه المدينة، هناك عشرات المعارض التجارية الجيدة التي توفر أفضل الهواتف المحمولة وملحقاتها بأسعار معقولة ، ودون أن يسيطر على المرء حين يدخلها شعور بالغباءِ أو البلاهة .

أجابت بما يشبه الارتباك :

- لقد حاولت من قبل.. من قبل أن أشتري هاتفي، لكنني فشلت. دوماً أجد قدميَّ تقودان خطواتي إلى هذا المعرض بالذات دون سواه .

- لماذا ؟

قالت بصوت يشبه صوت شرود أحلام اليقظة :

- لا أدري .. أظنُّ أنها تلك الأضواء الملونة التي تنسكب من السقف إلى الأرض، لتتراكض على المساحات الشاسعة كمهور ملوَّنة بألوان قوس قزح في أجواءٍ مغمورةٍ بعطرٍ يسحر حواسي، فلا أجدُني إلا وقد دخلت للشِّراء! .

- وهذا ما يشعرُكِ بعدها بالغباء ؟

- لا ..

- إذن ؟

ردَّت بغيظٍ مكظوم لم يخف على مسمعي :

- بصراحة .. أختي التي ترافقني إلى هناك في كل مرة هي السبب. كلما سألت البائع سؤالا وجدتها تحاول التحاذق أمامه في اللحظة التي أجد فيها نفسي أرتبك، ولا أستطيع الردَّ بحرف واحد ! . بالكاد أومئ برأسي كالبلهاء ، وهذا ما يجعله يصدّقها فيسيل وجهي خجلا وقهرًا من نظراته الساخرة. لا بدَّ وأنه يظن أنني أستحق لقب سيدة الغبيَّات في العالم أجمع.

– هذا غير مهمّ، فهو مجرَّد بائع لا يعرفك ، وفوق هذا لاشك بأنه يلتقي بآلاف وجوه الزبائن كلّ يوم، سرعان ما سينساكِ لو توقفتِ عن الذهاب إلى هناك.

– لا.. إنه مهمٌّ، لا أريد أن أبدو غبية أمام أحد .

– لكنك لست غبية !

ردَّت بنبرة مشحونة بالتحدي :

– لكن لينا تجعلني أبدو غبية أمام هذا البائع بالذّات، وأنا لا أريد أن أبدو كذلك.

بدت لي قصة تعلُّق نينا بذاك المعرض التجاري ترتدي شيئا من الغموض .. ثم زادها غموضًا في ذهني اكتشاف دور جديد لشقيقتها لينا في أحداث بدت لي على قدر لا بأس به من السماجة ، إلى الحد الذي يغري الأذن بالرقاد ..

بالنسبة إليّ ، فإنني لا أعرف عن لينا بنفسي إلا ملامح وجهها، وصوتها الرقيق، وذوقها الشاهق الذي يعجز ركب الأناقة عن محاولة التقدم عليه، أما ما تبقى عنها فلم أعرفه إلا على لسان أختها الصغرى نينا. لكنني أظَ أنّ طلاق لينا الذي وقع قبل أن يبلغ عمر زواجها عامه الثاني قد غذّى نشاط غيظها إلى الحد الذي ضاعف تأكيدها لي في كلّ مرة أنّ الرجال كلهم

مجرمون، فاسدون، مدمنون، أرضعتهم القسوة سعرة مجهولة النَّسب، وورثوا بشاعة سحناتهم الشريرة عن وجه أم الغيلان دون أن يدري بذلك أحد .. ثم تقسم بعد ذلك أنها لن تعقد مصيرها بمستقبل رجلٍ حتى الموت .

* * *

على مدى أكثر من أسبوعين ومعرض الهواتف المحمولة يؤدي دور مسمار جحا الصدئ مزروعًا في ذهن نينا، وأنا التي أسمع طرقات لسانها المتواصلة على ذاك المسمار دون أن تتمكن محاولاتي من إقناعها بانتزاعه ، أو على الأقل الكف عن الطرق عليه قريبا من مسامعي التي انتابها الضجر.. قالت لي ذات اتصالٍ هاتفيٍّ آخر :

- هل تذكرين بائع الهواتف المحمولة الذي حدَّثتُكِ عنه؟.. إنه متزوج، وأب لطفلين .

- كيف عرفتِ هذا ؟

-سمعته يتحدث مع زوجته ويسألها عن الطفلين عبر هاتفه المحمول.

قلت دون مبالاة :

- وماذا في ذلك ؟.. هناك الكثير من المتزوجين على سطح هذا الكوكب !..

– لكن هذا الشّخص مختلف.. لم أتصور يوما أنه متزوّج، كما أن أصابعه حرة من الخواتم !.

– وما شأننا به ؟.. إنه حرٌّ في حياته الخاصّـــة .

أجابت بصوت يخالطه ما يشبه الخيبة بعد لحظة صمت قصيرة:

– نعم .. بالفعل، لا شأن لنا بأحد .

لكنّها لم تستطع ابتلاع سر كونها لم تعد تعتبر ذاك البائع كأيٍّ أحد أكثر من يوم واحد . وكان ذلك مذهلا بالنّسبة إلى سمعي الذي مازال يجترُّ صدى يقين صوتها بأن الوقوع بين براثن الجذام أشد شفقة ورأفة بالمرأة من الوقوع بين براثن الإعجاب برجل. وتسببت تلك المفاجأة بالارتباك لإدراك أحاسيس أفكاري التي تبعثرت لوهلة، قبل أن تعاود غزل خيوط رباط جأشها بسرعة، تمكّن بعدها سمعي من التقاط صوت نينا وهو يكسو شخصية ذاك البائع الذي لا أعرفه بصفات أتقى الأولياء والصالحين وأذكى العباقرة المبدعين، ثم قالت لي بصوت يتنهد حسرةً :

– لكنه يحبُّها ولا يحبني .

– من ؟

– لينا .. يحبها هي ولا يحبني .

بدا لي وكأنني أستمع إلى أوهام عاطفة فتاة لم تبلغ رشد ما بعد بدايات أيام المراهقة، وليس إلى شابة فارقت يوم تاريخ ميلادها الثالث والعشرين قبل أسابيع. لم أكن أتوقع أن نينا صادقة الجدية في كلِ ما ثرثرته على مسامعي عن ذاك الرجل المجهول طوال تلك المُدَّة، وشعر فضولي برغبة ملحة في الوصول إلى ذيل قصتها التي لفتت بصر دهشتي، فأملى عليَّ رغبته بأن أعقل سراح لساني عن التطفل على مشاعرها بحقيقة رأيي كي أضمن بقاء سراح لسانها طليقا أمام مسمعي، مما يضمن لفضولي متعة أطول .. سألتُها باهتمام :

– وكيف عرفتِ أنه يحبُّها ؟

أجابت بثقة :

– كلما دخلنا ذاك المعرض، سعى لبذل التحية لها بسخاء دون أن يعيرني نظرة مبالاة، ثم يلبِّي طلباتها هي أولا ولا يلتفت لوجودي إلا حين تشير هي له بما أريد..

ثم أردفت بحنق :

–أعلم أنهما يظنّان أنني غبية، وأعلم أنها هي من أوحتْ له بأنني مغفلة ، لكنني لست كذلك، ولا أدري كيف أؤكد له عكس ما أوهمته به .. لا أدري لماذا يعجب بها الجميع بينما لا يعبأ بوجودي أحد! .

قلتُ بحذر :

- ربما كان يعاملها كزبونة عادية يا نينا .

ردت بحدة :

- لا .. لقد حاولت أن أقنع نفسي بهذا أيضا، لكنني اكتشفت أنّ العلاقة بينهما تتجاوز علاقة بائع بزبونة .. أؤكد لك أنني رأيته يستعرض أمامها مهارات دراجته النارية بحركات بهلوانية حين خرجنا للنزهة على ضفة النهر يوم عطلة نهاية الأسبوع الماضي. وحين تعمدت أن أسألها إن كان ذاك هو بائع الهواتف المحمولة في معرض الاتصالات الودودة تظاهرت بأنها لا تدري .

تدفّق في أعماقي شعور بالإثارة التي خبأتها جيدًا بنبرة صوت محايدة وأنا أقول:

- ربما لم يكن هو .. وربما لم تكن تدري بالفعل .

- بل كان هو. إني أحفظ ملامحه جيدا ولست عمياء .. أما هي فقد كانت تدري، ولو أنك رأيت لمعان ابتهاج عينيها حين رأته لعرفت ذلك . ثم ما الذي سيجيء به إلى المكان الذي نحن فيه في اليوم نفسه وفي الساعة نفسها إن لم تكن هي التي أعلمته بموعد ذهابنا إلى هناك ؟ .

رغم جميع ما قالته نينا، إلا أنني لم أقتنع بتلك القصة التي بدت لي دون بداية . لم يكن بوسع عقلي جمع أفكاره لترتب

صورة سيدة شابّة مثل لينا تقع فجأة في غرام بائع هواتف محمولة دون أن يسبق ذلك تسلسل منطقي لأحداث التعارف بينهما. ربما لم تخبرني نينا بكل شيء، وربما كانت تصوراتها تسبح في محيطات من الأوهام التي ابتكرتها أوقات فراغها الطويلة .. لكن فضولي مازال مُصِرًّا على معرفة نهاية هذه القصة بلسان نينا التي بدت لي مشاعرها تتعذّب في برزخ عالم لا وجود له، بينما تُصِرُّ هي على إيجاده لتعذيب روحها أكثر، إلى الحد الذي دفعها لأن ترتكب ما جعلها تتصل بي ذات صباح لتقول لي بصوت يقع على ضفاف البكاء الهامس :

– لقد تأكّدت تماما يا مايا، البارحة فقط تأكدت من أنه مغرم بها هي. لقد سرقتُ هاتفها المحمول البارحة بعد أن نامت مبكرة بسبب الصداع الذي تسلّط على رأسها فجأة ، ووجدت اسمه مُدوَّناً على مفكرة الهاتف. نقرت زر الاتصال وألصقت السماعة بأذني دون أن أتفوه ببنت شفه.. كانت تلك الساعة هي ساعة خروجه من المعرض في طريق عودته إلى منزله بعد الإغلاق. أتدرين ماذا قال حين أبصر رقمها وكان يظنُّها هي المتصلة ؟؟.. كان يقول بصوت هامش طافح بالشاعرية : (أحبك.. أحبك.. أحبك بجنون، وحتى آخر يوم في حياتي )!!.. أوه يا مايا ! ، إنني مخلوقة مدمَّرة تماما.. ماذا أفعل ؟ ، قولي لي ماذا أفعل قبل أن ينفجر عقلي بالغيظ والجنون فأخطط لقتلها أو ربما قتلهما معا.

قلتُ بشفقة :

-لا تحزني، أؤكد لك أن هذا المخلوق لا يستحق منك كل هذا الحزن .

ردت بعصبية صوت لم يذق طعم النوم منذ زمن لا أعرفه :

– كيف لا أحزن، يا إلهي ! كيف لا أحزن ؟.. لقد استولت عليه، أخذته لها يا مايا.

– لا بأس ، لا تهتمي .. إنهما على أية حال يصلحان لبعضهما أكثر.

– لماذا ؟.. أي خطأ يجعلني لا أليق به ؟، وما معنى أن تصلح هي له وأنا لا ؟.

-بل هو الذي لا يليق بك ، إنه متزوج وله طفلان وهي كانت متزوجة من قبل. إنهما متكافئتان من هذه الناحية، بينما أنت مازلت فتاة وتستحقين رجلا أفضل من هذا .

– وماذا في ذلك ؟؟.. هناك ملايين الفتيات اللواتي يتزوجن برجال متزوجين، أين هي المشكلة ؟

أذهلني ما قالته إلى الحد الذي أوصد باب ما بوسعي التفكير بقوله، عدا أن أنصحها بأن تحاول النوم كي تسمح لأعصابها المرهقة بنيل قسط من الراحة. كنت ما زلت من قبل أظن أنها لا

ترجو أكثر من الاحتفاظ بغرام ذاك الرجل بين أسرار مخيلتها دون التطلع بمطامعها من رجل متزوج إلى ما هو أكثر، ولذا فقد كان آخر ما قالته أشبه بزيت انصبَّ على نار فضولي لرؤية ذاك المخلوق الذي استولى على مشاعر لبِّ نينا وشقيقتها دفعة واحدة ، فأمسكت هاتفي المحمول وأنا أقول لنفسي : ( لابد وأن نذهب لرؤية توم كروز معرض الشارع المجاور. لابد وأن أدرك سر جاذبية هذا البائع ) .

سرعان ما وصلْتُ إلى مجمعات حياة النجوم التجارية ، حيث يقع معرض (الاتصالات الودودة) كما وصفت لي نينا .. بدأت جولتي بين كبرى معارض الهواتف المحمولة كي لا أبذِّر الكثير من وقت نهاري. حين لم أبصر أثرًا لصورة ذاك المعرض الذي وصفته ظننت أنني ربما سمحت لشرودي لحظة أن يغفل عن بصري رؤية ذاك المعرض، فعاودت خطواتي رحلة بحثها من جديد بدءاً من أوَّل مدخل قسم المعارض الراقية الذي اجتزته من قبل دون أن أصل إلى جدوى.

لم يبقَ لي إلا أن أحاول محاولتي الأخيرة المتخمة بالشك .. انعطفت بخطواتي إلى قسم محلات الهواتف المحمولة الأقل لفتًا لاهتمام ذوي الأذواق الراقية.

وبعد أن تجاوزت اثنتين من واجهات تلك المحلات أبصرت لوحة اسم معرض تساقطت بعض حروفها فصار عنوانه .. (اتصالات الدودة)، واستطاع بصري أن يميز الفرق بين لون بقية

مساحة اللوحة الصفراء وبين المساحات الصغيرة الباهتة التي أورثتها الحروف المتساقطة وراءها، فأدرَكَتْ دهشتي أنني أدركْتُ أخيرًا ما جئت للبحث عنه !.

في اللحظة التي خطوت فيها داخل المعرض الضيق ذي المصباحين الرخيصين ظننت أنني أخطأتُ العنوان مرة أخرى، وقبل أن أطيع خاطري بمغادرته لمعاودة البحث من جديد ؛ سمعت صوتا من داخل مخزن المحل عرفت أنه ينادي الشاب الذي كان ينظف إحدى الخزائن الزجاجية المخصصة لعرض الهواتف المحمولة ، بخرقة مهترئة بدا لي أنها كانت ذات يوم جزءاً من لباس مخدة مخططة:

( ربشون .. لم يعد لدينا المزيد من الأغلفة الفضّية! )..

عرفت أنني كنت أقف في تلك اللحظة بالفعل أمام السيد (آدم ربشون) الذي كان نشيد ذاكرة نينا على مسمعي طوال الأيام الماضية. تقدمت من الشاب الذي بدا لي أن الوسامة أشفقت على أمّه فتصدَّقَتْ عليه بوجه عادي يليق بشعره الذي بدا أنه نسي أن يمشطه، وقميصه الذي نسيت زوجته أن تمرر وجه المكواة على قماشه القديم، وسألته أن يجد لهاتفي غلافاً ملائماً.

أخذَ مني هاتفي دون مبالاة ونظر إليه لحظة قبل أن ينظر نصف ثانية للخزانة الزجاجية الرابضة وراءه، ثم قال بنبرة كسولة وهو يضع الهاتف على المنضدة أمامي :

- آسف .. ليس لدينا أغلفة لمنتجات هذه العلامة التجارية .

و في طريق العودة إلى مترلي انتابتني موجة تضحك أجبرتُها على تمالك زمام نفسها بصعوبة، كي لا يظنَّ المشاةُ أنني مخبولة .

# فُقَاعَـةُ عِطرٍ !

تكوَّمْتُ في ظلامِ زاويةِ حُجْرَتي وأنا أسمع صوتي المرتعش يقول بما يشبه الهذيان:

" لم أقصد ذلك.. أقسم أنني لم أقصد، لم يكن خطئي، لست أنا سبب الذي حدث ....."

باغتني صدى صوت ضحكتها قادمًا من عالم عتمة بعيدة مازلتُ أجهل ملامحها، ليجلد ذاكرتي بما كانت تقوله لي مرَّات بعد مثل تلك الضحكة :

-كم هو غريبٌ مضحكٌ كلامُ بعض أولئك الذين يظنُّون أنهم أذكياء القسوة!!، ألا ترى أنهم يشمرون عن مخالب قسوتهم بقول :( لا أقصد أن أجرح شعورك .. لا أريد إيذاء أحاسيسك.. لا أعني الإساءة .. ) كلما تأهبُّوا لإطلاق ما سيؤذوننا ويسيئون إلينا ويجرحون مشاعرنا به ؟! ..

تردَّدَ صدى عبارتها الأخيرة آلاف المرات بين جدران رأسي الذي بدأتْ شرايينه تنبض بوجع شرس، فأطبقت عليه بكفيَّ وأنا أصرخ :

-كلا .. صدقيني لم أقصد .. لم أقصد .

ألصقتُ وجهي بزاوية الجدار بقلب يتضوَّر بين براثن شعور خانق. لم أكن أتصور قبل يومي هذا أنّ ما حدثَ لي قد يحدثُ حقًا على وجه الأرض مُرتدياً لونَ صعقةِ المفاجأة في غير أخبار الصحف ، حيث الأحداث لبصري من ورق، والأشخاص من ورق، والكلام من سواد حبر على بياض ورق .. يراها ذهني الذي اعتاد على حركة واقعه اليومي كعالم خُرافيٍّ مُخَنَّـــطٍ بي بالحبر على الورق، دون أن تكون له صلة قرابة بعالم الحياة التي أمشي على سطحها.. وها هي سخرية القدر من ماضي عبثي تضرب لي يومَ غدٍ موعدًا أرى فيه جزءًا من ذاكرتي مصلوباً إلى الأبد حبرًا على وجه صحيفة ! .

غداً يستحيل اسم سوسن حبرًا على ورق صحيفة، بعد أن كانت هذا الصباح تحفة شباب يسيل عطرًا وجمالا يمشي على قدمين، بابتسامتها التي حاولت أن تتَــشبَّثَ بي، فذابت أمام عجلة خطوات فِراري منها .

ليتَهَا أقفلت خط الهاتف بعد أن شتمتني و بصقت في وجهي حين كنت أقول لها بحدة متعمَّدَة إنني منشغلٌ عن مقابلتها، كما فعلت معي ليلى.. أو ليتها صفعتني على وجهي بثقل حقيبة يدها حين بدأتُ التلميح لفهمها بمقدمات رغبتي في مفارقتها،

كما فعلت بي فاتن .. وليتها كانت حاذقة أتقنت الغوص في بحر تجارب العلاقات الهشّة مع آخرين قبلي إلى الحد الذي لا يردعها عن ابتزاز جيوبي كلما رأيتها، كما فعلت نهى وسهى ولبنى وميساء، وجميع أولئك اللواتي نسيت أسماءهن فور لحظة التفات وجوههن عن بصري ..

لكن براءتها أصرت على البقاء قيدَ الطفولة كما عرفتُها يوم قابلتُها أولَ مرة . كانت هي الوحيدة التي بدأ لقائي بها بما يشبه الصدفة. التفت إليها انتباهُ بصري فجأةً وكأنها هبطت بهالة من البراءة على مشهدٍ يشبه لوحة مفعمة بروح الطفولة . وجه ضاحك لطفلة كبيرة محاطة بأطفال صغار، تمسك بيدها حزمة من بالونات كبيرة ملونة للبيع .. واتخذ خُبثي قرارَه في تلك اللحظة بأن أخطو نحوها لشراء بالون كي أجد حجّةً لتتسلل حيلتي نحو طريق التعرُّف إليها.

منذ تلك البداية ، وشخصيَّـــتي التي تهوى استبدال الفتيات بتَـــقَــلُّب فصول مزاجي كانت تدرك النهاية. لكن سذاجة طفولتها كانت تجهل قوانينَ لعبة مضمار العلاقات العاطفية الهشَّة التي أتقنتُها أنا منذ نعومة أظفارَ مراهقَـــتي .. وكنت أراها من أولئك الذين مازالت براءة قلوبهم تؤمن بمبادئ الحب (القيسيِّ المُلوَّحيِّ) ، الذي كنت أنا راسخَ الإيمان باستحالته إلى أسطورة تافهة من أساطير الأوَّلين التي تُوفِّيَتْ مَبادئُها، بانقراض عصر المتفرغين لنظم القصائد في النساء ونوق الصحراء .

كانت سعيدةً سعادَةَ من يبصرُ جمالَ الأشياءِ بعين جديدة ، وحذر أغمي عليه أمام التفكير بصلة القرابة بين الحزن وبين ما تخبّئه جعبة أيام المستقبل، إلى الحدّ الذي كنت معه أغبطها وأشفق عليها بينما تسخر أعماقي وذاكرتي المخضرمة بالتجارب من سذاجتها في اللحظة ذاتها. وحين هبط موعد الخريف على رغبتي بالاستمرار معها ، كانت هي ما تزال غارقة الأحاسيس في ربيع باذخ السّخاء في أوهام مسراته. وفشل تواطؤ تهرُّبي من لقائها آخرَ الأيّام مع لا مبالاتي بالردّ على رسائلها ومكالماتها الهاتفية في بذل يد العون لمشاعرها تجاهي كي تبلغ مرحلة الفطام، وجعْلها تدرك أن أيّامنا الماضية لم تكن أكثر من فُـقّـاعَة عطرٍ أنجبتها رغوةُ صابونة ورديّة قصيرة الحياة ، كان لا بد من أنَ تنفجر حين تبلغ مشاعري حدودَ فصلِ الضجرِ . حتى أجبرني شعوري بالتورُّط معها على تغيير رقم هاتفي كي أحرم إلحاحها من الوصول إليّ ، فأبتر تشبُّثها بي. وهنأتُ حذري المحترفَ الذي أصمَّ أذنيه عن توسُّلاتها لمعرفة المزيد عن مكان سكني وعملي، وإلا لما كان يدهشني بعد الذي أبصرته من تشبثها المجنون بي أن أرى يدها ملصقة منذ الصباح إلى المساء على جرس باب مسكني، أو أراها قد هبطت على الهماكي ساعة من ساعات وقت عملي !! .

لكنني لم أتوقع أن يكون صوت انفجار فقاعة العطر بيننا مدوّياً إلى الحدّ الذي أصاب ضميري بهذا الهلع المخبول مذ ساعة ما قبل غروب هذا النهار، حين بزَغَتْ فجأة أمام ارتباك دهشتي

بعد أشهر ظننتُ خلالها أنني سيطرت على نهاية معرفتي بها إلى الأبد.

كان الشارع العريض الغارق في لون كآبة ساعة الغروب بيننا، لحظة قَبَضَ بصرها عليَّ وأنا منهمك المزاج في تدخين سيجارة، ورأيت تألُّق تلك النظرة المشحونة بجنون فرح مفاجئ في عينيها، وهي تهتف لي بصوت مُعَتَّـــقٍ بلهفة انتظار بعيد :

– زياد ! ..

تظاهرتُ بأنني لم أرَ ولم أسمع، ومشيتُ بخطوات مسرعة نحو سيارتي كي أجد طريق الفرار عن مدى بصرها قبل أن تجتاز عرض الشارع نحوي، وخلال أدنى من مسافة غمضة جفن دوى صوتٍ مكابح سيارة مسرعة، ثم رأيت جسدها المتدفق بالدم منكفئًا على الأرض، بينما عشرات البالونات التي كانت تحملها كي تبيعها للأطفال قد تطايرت مُحلِّقةً نحو السماء ..

ألقت سيجارتي بجسدها من بين شفتيَّ إلى الأرض منتحرة من هول المشهد.. تبعثرت نفسي في فضاءات لم تعرفها مشاعري لحظة من قبل ..أطبقتُ جفنيَّ بعد لحظات من تحديق جمود صعقة المفاجأة، وبدأت كل حاسَّة من حواسِّي تنبض ارتعاشاً بهلع من أصاب طفلا ببندقية كان يعبث بها دون قصد، قبل أن أفرَّ من صدمة المشهد إلى الغرق في جحيم هواجسي، بين ظلام جدران الأرق النازف اضطرابًا في حجرتي طوال الليل.

ها قد جاء نهار آخر يرتدي أشعة شمس لا تشبه شموس كلّ نهار اجتاز أيامي الماضية. الحرارة وشراسة الضوء تعانقتا واقتحمتا زجاج النافذة المقابلة لوجهي وسلقتا جلدي بعرق خانق. تحاملتُ على اضطرابي ووقفت أمام زجاج النافذة الهشّ ، فبدت الألوان المغمورة بضوء الشمس لبصري المسكوب على مشهد حركة الشارع الرابض على أعتاب الطابق الأرضي من المبنى الذي أسكن شقة من طابقه الرابع أشبه بألوان حمم بركانية سائلة.. ملأتْ حواسّي رغبةٌ خارقةُ الكثافة في السباحةِ بين أطباق حرارة تلك الحمم التي تنفث دخانها على بصري، وشعرت والعرق يتدفق بغزارة من مسامي أنني على شاطئ سيولة اللهب الأحمر.. رأيتُ جسدي بخيالي بالونًا ضخمًا يحلّق فوق حرارة البركان. ثم كان آخر ما سمعته صوت زجاج يتكسَّر تحت بقايا قوَّة جسدي ، بينما كان البالون الضخم ينفجر في الفضاء لتتدفق من جوفه سخونة حمرة الدماء .

# أوغَادٌ ! !

- أوغَادٌ ..

قالتها بصوت انفجر بحنق حروفه من بين شفتين مرتعشتين، قبل أن تضرب بجانب قبضتها وجه الطاولة التي نجلس عليها معاً في مقهى قلب المدينة .

ارتفع إليها بصري مُتَخَـلّـيًا عن سباحة وله نظراته المُعلّقة بألوان كوب المثلجات الضخم أمامي، حين باغت شرود سمعي انفجار أوّل كلمة بَصَقَـتها شفتاها بعد عشرين دقيقة من الصمت ! . رأيتها تمتصُّ نَفَساً قصيراً مضطرباً من ذيل سيجارتها المُعلقة بين إصبعي كفٍّ أشدّ اضطراباً، ثم زفرته بسرعة فيما يشبه اللهاث المتقطّع . قبل أن يتدفق لسانها بعصبية :

- كلُّهم أوغادٌ .. كلُّهم أوغادٌ .. الرجال كلهم أوغاد وبلا فائدة .. صدقيني إنّهم مخلوقات بلا فائدة، لا يمسُّون شيئا أو يقتربون من أحد إلا وتسحقه لعنة الدمار.

ثمَّ سحقت رأسَ سيجارتها في بطن منفضة السجائر بغيظ وهي تحاول ازدراد ريقها من بين أنفاسها المتلاحقة، قبل أن

يذوب من تلك السيجارة أكثر من نصف جسدها.. وسارعَتْ بإشعال سيجارة ثانية امتصَّت من طرف ذيلها نفَسا قصيرًا قبل أن تقول بحَنَق :

- انظري.. انظري إلى هذا الوغد الذي يجالس تلك الفتاة على الطاولة المقابلة .. انظري كيف تدَّعي ملامُحه ولَهَ الأشواق، أراهن على أنه يسعى لخداع قلب تلك المسكينة ، كي يصفقها من حياته خلال أيام .

سألتها محاولة إبداء بعض الاهتمام بأمر لا يهمني حقا :

- هل تعرفينه ؟

ردت بصوت واثق :

- لا .. لكنني أعرف أنهم كلُّهم هكذا .

- ربما تكون أخته .. أو من الأقارب .

- لا.. إنَّ ملامحهم لا تسيل لطفًا إلى هذا الحدِّ السافر إلا حين تكون طُعماً لاصطياد قلوب الساذجات من بنات الناس.

- إنَّ بعضَ الظنِّ إثمٌ ..

- ليس كلُّ الظنِّ إثمًا ..

أومأتُ برأسي إيماءة قصيرة أبهمتُ لا مبالاتها بابتسامة عريضة حاولت أن أشحن معناها بالتفهُّم، وتعمدت الانهماك

بتناول المثلجات كي أوفر للساني حجَّة يفر بها من حوار لم يكن لخمول مزاجي شهية في مواكبة تحفُّز مزاجها لتحويله إلى جدالٍ مجهول الخاتمة .

كان عطفي على تعاستها يدرك أنها لم تُشفَ من حزنها، رغم مرور قرابة العام على صدمتها العاطفية . لم تكن الفتاة الجالسة أمامي هي غادة ذات العينين البرَّاقتين المتوثبتين نحو دهشة مفاجآت المستقبل، بل هي كتلة من عظام يرتدي جلدا بشرياً تنمُّ صفرته الشاحبة عن المرض، بجمجمة تفصح ملامحها عن فجوتين غائرتين كانتا عينيها قبل أن ينتحر بريقهما، وما تبقى من شعر كستنائيٍّ مبعثر فقد حياته يوم هاجر اهتمام صاحبته بحياتها. لم يكن كل هذا بالنِّسبة إلى بصري وبصر بقية الصديقات سوى مخلوق يبدو في بؤسه الحزين أشبه بوهم متحرِّك، كان اسمه ذات يوم قبل عام : غادة .

مرت لحظاتٌ قبل أن تنفجر بحدَّة :

– أوغادٌ .. منافقون .. كاذبون مخادعون.. ملعونون إلى يوم الدِّين .. كلُّهم هكذا.. كلُّهم .. أقسمُ لكِ بربٍّ جميع المرسلين والأولياء والصالحين أن لا رجل يمشي على وجه الأرض يستحق اهتمام امرأة أو تضحيتها.

امتَصَّتْ نفسين سريعين من ذيل سيجارتها بحركة عصبية قبل أن تكمل:

- كلُهم هكذا .. يُتقنون فنَّ المكر بارتداء أقنعتهم في البداية. يتظاهرون بالطيبة ورقّــة الشعور ودماثة الأحاسيس وصدق الشهامة ، ثم وعلى حين غِرَّة ، وبعد أن تكون مشاعر الفتاة البريئة المسكينة قد توغلت في اطمئنانها إليهم ، يرتدُّون على أعقابهم ، وتسقط أقنعتهم عن بشاعة صورة إدمانهم للخيانة .. خَونة.. فاسدون.. مفسدون.. محتالون.. أفّاقون.. صبَّ الله حميم نقمته وعذابه على رؤوسهم جميعا كي تستريح الأرض من لعنات خبثهم التي لا تعرف حدودًا ولا ذمَّة .

قلتُ بهدوء وأنا أنظر إلى عينيها المنتفختين من أثر فَقر النوم:

- بالفعل، لكن اشربي العصير الذي طلبتُه لكِ قبل أن يفقد برودته.

رفعَتْ كأس العصير إلى شفتيها بيد مضطربة وعينين ساهمتين. لا شكَّ أنّها لم ترَ أنبوب امتصاص العصير المخصَّص للشرب داخل كأسها، ولم يكن توازنها المرتعش قادرًا على تثبيت شفتيها فوق الناحية الملائمة من الكأس، فتدفق من العصير على عنقها وملابسها أكثر ممَّا تجاوز حدود حنجرتها إلى جوفها. جفّــفَت فمَها وملابَسها من آثار العصير ببطء، ثم بدأت أظافرها تحكُّ جانب عنقها بقسوة وحشية تكاد تكون أشبه بالانتقام ، إلى الحدِّ الذي بدت فيه بصمات أظافرها محفورة في حمرة تلك البقعة من الجلد، دون أن يبدو أنها قد شعرت بذرَّة من الألم.

رفَعَت رأسها إليّ بعينين متسائلتين وقالت :

– ماذا كنّا نقول ؟

أجبتها بنبرة محايدة :

– أوغادٌ ! .

أطلقت زفرة بعيدة وهي تقول بما يشبه الشرود :

– نعم .. إنهم جميعا أوغاد.

مرت لحظة صمت وجمَتْ خلالها قبل أن تعاود انفعالها فجأة وتقول محتدَّةً:

– أوغاد ؟؟.. إنهم ليسوا أوغاداً فحسب ، إنهم صورة لعنة داء الطاعون على وجه الأرض .. لا أدري لماذا يعيشون فوق كوكب الأرض عالة على النساء رغم إنهم كائنات لا جدوى من وجودها على الإطلاق. مخلوقات بلا فائدة تزاحمنا نصيبنا من الماء والغذاء والشمس والهواء .. اللعنة !.

– أظنّ أنّ لهم أحيانًا بعض الفائدة .

– لا أظنُّ ذلك .. أؤكد لك أنهم جميعا بلا فائدة .

– لكن أحيانا عندما ........

قاطعتني بحدة لتقول :

– لا فائدة .. لا فائدة .. لا تحاولي معي يا بلقيس ، إنهم جميعا دون استثناء بلا فائدة .. وليس لهم من المواهب ما يزيد عن

خداع النساء للقبض على قلوبهن ثم إعدامها بعصرها حتى الموت ، بعد أن يغرقوها في محيطات أحلام وهمية لا تشبه أكثر من صكوك صرف عاطفية لا رصيد لها.. أتدرين لماذا ؟؟.. لإشباع غـــرورهم الذي لا يشبع، وملء أشداق عُقــدِ نقــصهم الــتي لا تنتــهي بانتصاراتهم الهشَّة على النساء. ولأنهم يعشقون التجربة ، يعاملون كلَّ امرأة كما يُعامَلُ فأرٌ مسكينٌ في مختـــبر تجـــارب مـــشحون الأجواء بقسوة أفكار عالم لا يعبأ بغير إرضاء شهية أنانيته لبلـــوغ أهدافه حتى لو مات الفأر. نعم ، حتى لو مات.. وماذا سيخـــسر إذا أمات فأرًا ، فبوسعه أن يصطاد أو يشتري آلاف الفئران غيره لتحلَّ محلَّه في قفص التجارب الجهنَّمية ذاك ؟؟ .

قلت لها بصوت متعاطف بعد أن ابتلعتُ الجرعة الأخيرة من المثلجات اللذيذة :

– اهدئي يا عزيزتي، هوِّني على نفسك .

ثارت وهي ترتجف غضباً :

– أهدأ ؟!.. كيف أهدأ ؟؟ .. أهوِّن على نفسي ؟.. من أين لي أن أهوِّن على نفسي ؟؟ .. أنت لا تعلمين، لا تفهمـــين.. لا تعانين مُعاناتي ولا تحسين بما أحسُّ. أتدرين ما فعلـــه معـــي ذاك الوغد الخائن الحقير ؟ .. بعد أن اعتبَرَته سذاجة عواطفي بطلاً فرَّ من بين صفحات روايات الأساطير ليتقاسم معي الأيام على أرض الواقع ، بعد أن أهدرتُ عليه عصارة قلبي وأسرفت في حبِّي لـــه

واهتمامي به ، تركني ليرافق تلك التي لا تـــساوي قلامـــة ظفـــر مُهشَّم من أظفاري.. وهذا هو ما يوقظ الشياطين في رأسي ويكاد يدفعني إلى الجنون !!.. تلك القذرة الحقيرة اللا أحـــد !!.. لمـــاذا ؟!.. إنها أقل مني في كل شيء !.. كل شيء !!.. تخلـــى عـــني لأجل نصف ساقطة !!.. افهميني يا بلقيس ، أرجوك .. قولي لي بالله عليك ، ما الذي تمتلكه تلك القذرة مما ليس عندي سوى قلة الحياء وانعدام الضمير والأخلاق ؟؟.. قولي لي، أجيـــــــبيني ولا تسكتي، أرجوك.. أعدك بأنني لن أغضب، فقط أخبريني .

قلتُ لها بعطف وأنا أحاول تهدئتها :

– لا شيء غادة ، لا شيء .. كل ما في الأمر أنهما مخلوقـــان سيئان ويليق كل منهما بالآخر. حاولي أن تنسي ، وأنا متأكـــدة من أن الله تعالى سيرسل لك إنسانا يليق بك.

قالت بصوت يكاد يرسو على شواطئ البكاء:

– كيف أنسى ؟.. أنا مُدمَّرة .. أ كان هذا جزائي ؟!.. لقـــد كنت غبية طوال الوقت، نعم، غبيّة.. بل كنت سيدة الغبيَّـــــات فوق الأرض جميعًا، وأستحق أضعاف ما حدث لي .

– هذا غير صحيح، أنت إنسانة مذهلة .

– مذهلة ؟!.. مذهلة!!.. ما جدوى الإذهال ؟؟.. ما جدوى الجمال والعلم والنَّسب والأخلاق والثقافة والقلب الطيِّـــب للفتـــاة هذه الأيام ؟؟

– .. إنه كذب ، كلُّ هذا محض كذب تخدع به الرِّوايات والأفلام عقول البريئات أمثالك.. وما حدث لي هو البرهان الأكبر.. كنت دوماً أقول لنفسي إنه لن يفارقني أبدًا لأنَّ من الصعب أن يجد فتاة بكلِّ مواصفاتي، لكنَّه تركني لدمار الوحشة والتمزُّق بإشارة من نصف ساقطة عادية، ليس لها عُشر مواصفاتي.. أنا جميلة ، وهي متواضعة الملامح .. أنا مواطنة محترمة النسب، وهي ليست أكثر من شرق آسيوية مجهولة الأسرة ، جاءت بلادنا في ثياب سائحة ، ربما لتتجسَّس وتسرق الشبَّان لا أكثر. أنا متعلِّمة مثقفة متعدِّدة المواهب ناصعة الأخلاق، وهي لا شيء .. لا شيء ..

– كلاهما لا شيء، صدِّقيني .. لا تفكِّري بالأمر .

– أتدرين ما الذي يمكن أن يجنيه أولئك الأوغاد من مطاردة فتاة مذهلة لاصطياد قلبها ؟؟.. الشعور بالزَّهو أمام انتصارهم العظيم الذي يضيفونه إلى أرقام إنجازات خبثهم المعلنة والسِّرِّية.. لا أكثر!!.. يريدون شحن ثقتهم بأنفسهم بهذه الطريقة ، دون أن تعبأ ضمائرهم بمستقبل تلك الفتاة المسكينة التي يزجُّون بمعنوياتها في هاوية الدمار .. إذا كان الواحد منهم لا يريد تلك الفتاة منذ البداية ، فلماذا يسرف في اقترابه منها، ويجعلها تعيش أحلامه السخيفة في النوم واليقظة ؟؟.. لماذا لا يتركها تعيش ونفسها بسلام حتى يكتب الله تعالى لها المستقبل الذي يُلائم حياتها ؟؟ .. لكنَّهم وُصوليُّون أنانيُّون، لا يهتمُّون إلا بإرضاء عواطفهم ونزواتهم المفعمة بروح النذالة ، حتى لو كان ذلك على

حساب مستقبل صحة روح كائن بريء لا ذنب له إلا تصديق أكاذيبهم ووعودهم السرابيَّة .. أنت لا تدرين يا بلقيس ، لا تدرين .. لا تحسِّين بما أحس، وليس بوسعكِ إدراك ما أشعر لأنك لم تجربِّي هذا الجحيم .

قلت لها بنبرةٍ متعاطفة بينما كانت تلتقط أنفاسها لحظات :

– نعم ، معك حقٌّ يا عزيزتي، لكن لا بدَّ من محاولة النسيان كي تتمكَّني من إكمال طريق حياتك نحو المستقبل.. حاولي على الأقل، وسنكون جميعاً إلى جوارك .

– كيف أنسى وشظايا روحي مبعثرةٌ في فضاعاتٍ من القهر والضياع ؟.. أنت لا تدرين، لا تعرفين، لم تجربي من قبل. وأنصحك لوجه الصداقة أن لا تجرِّبي، أو حتى تفكِّري بتصديق أكاذيب رجل طوال حياتك.. كلهم كاذبون.. صدقيني يا بلقيس.. مخادعون .

أومأت برأسي موافقة في صمت باسم . كنت أعرف عن غادة أكثر مما تعرفه هي عني. ومما لا تعرفه أنّني ممن يُتقنون التَّعتيم على أسرارهم العاطفيَّة إلى الحدِّ الذي يعصمها من التفات فضول الناس إلى آثارها. لنفسي فقط لا أحرم ذكرياتي من الاعتراف بأنني تعثرت منذ فجر أيام شبابي بتجارب منها ما يفوق في شراسته على أحاسيسي قسوة تجربة غادة. احترقت ثم ولدت من رمادي بعدها مرَّات. لا أدري كيف اجتزت ظلام

نفق أحزاني وتمزقاتي الروحية الموجعة بصلابة أكبر في كل مرَّة، ربما تكون رغبتي السرِّية بالانتقام الذي لا يُؤذي أحدًا من بعيد هي التي كانت تدفعُني للتَّحامل على كلِّ خيبة جديدة من خيبات قلبي لأنْهضَ متألقة في طريق حياتي أكثر مما مضى، كي أثبت للذين تخلُّوا عني أنَّهم أهدروا كنـــزًا يستحيل على غبائهم - الذي وسوس لهم بأن يفرِّطوا به -أن يستردَّه . وأعترف أنَّ ليالي البكاء المتشنج في ظلام حجرتي هي التي وهبتني نجاح الأيام التي ركَضَتْ خلفها، كمُكافأة سماويَّة سَخيَّة .

بالنِّسبة إليَّ ، أظن أنَّ التَّجارب الإنسانية ذاهّا تزور الجميع في فترة من فترات حياهم، لكنها ترتدي في كل مرة موقفًا مختلفًا أمام كلِّ إنسان. صرتُ أعرف الآن بعد أن اعتصَرَتْ تجارب سنواتي الشابَّة أحاسيسي المتضخِّمة، أنَّ التجارب ليست أمرًا نتوقع ببساطة أفكارنا أفعاله وردود أفعاله تجاهنا في الحياة قبل وقوعه، لكنها تقتحم حياتنا لتستبدل بسذاجة أفكارنا وتطلعاتنا توقُّعات أكثرَ نضجًا وحذرًا أمام مفاجآت المستقبل .

بعثَرَ انتفاضُ صوت غادة شرودَ أفكاري ليجذبني إلى واقع اللحظة ، ثارَتْ في وجه الشَّابين الجالسين على الطاولة المجاورة وهي تقول :

- إلام تنظران يا عديمي الحياء والذوق والأخـــلاق ؟ .. أمـــا تخجلان من نفسيكُما ؟!.. ماذا تريدان منا ؟؟.. أتظنـــان أننـــا لا

ندري عما تخبئ جمجمة كل منكما من أفكار خبيثة ؟.. نحـــن لا نريد شيئا منكُما، أحسنَ الله إليكُما وأنْعَـــم عليكُمـــا، لا نريـــد حُـــبًّـــا ولا حـــزنًا ..

فيم تُـــحَـــدِّقَـــان ؟!.. هه ؟؟.. انظرا، أنا لست جميلة ، إنني سيدة الدَّميمات فوق سطح الأرض. انظـــرا ، شـــعري باهـــت متقصف مبعثر، ملابسي سخيفة ، بشرتي كالحة ، أؤكد لكمـــا أنَّ أضراسي جميعها مصابة بالتسوس، وأن رائحة فمي كريهة ، وأنـــني لا أغسل ما تحت مفصل كتفي أبدًا .. انظرا إلى ذراعي، لا ولـــن أنزع الشعر من عليها أبدًا، ولن أهذِّب شكل حـــاجبيَّ ، وحـــتى رموشي سأقصُّها فور وصولي إلى البيت.. لن أهب رجلا واحـــدا حق الابتهاج برؤيتي طوال حياتي، لن يرى أحدكم مـــني إلا مـــا يسبِّب الغثيان أيها المنافقون الأوغاد .

كانا يُحدِّقان في غادة بنظرات أذهلَتْها صَعْقةُ المفاجأة ، ولسانٍ شلَّ الهلعُ أمام لحظة الموقفِ المباغت مقدرتَه على التفوُّه بحرفٍ. في حين جعل الحرجُ من بقيَّةِ رُوَّاد المقهى شعوري الداخلي أشبه بشعور فأرٍ يُنَاضِل للفرار من مكانه، بينما يد شرِّيرة قابضة على ذيله بشدَّة. لَمْلَمَت غادة أطرافها بسرعة وهي تقول بعصبية :

– لن أبقى في هذا المكان، أشعر بالانزعاج .. وعلى أيَّة حال لقد حان وقت عودتي إلى المترل ..

قلت بنبرة يشوبها القلق :

- هل أنتِ حقًا على ما يُرام ؟؟.. هل أوصلكِ إلى البيت ؟

- كلا .. دقائق ويحين وقت انتهاء دوام مناوبة عمل أختي هاجر في المركز الصحّي المجاور، وقد وعدتني أن تصحبني بسيّارتها إلى البيت .. اللعنة على هذه الحقيبة !.. لا أدري كيف تبتلع الأشياء في جوفها على الدوام!!.. سيفوتني موعد تناول دوائي قبل أن أبتلع تلك الأقراص اللعينة . إلى اللقاء يا بلقيس .. اتصلي بي غداً .. لا تنسي ، سأنتظرك.

ثم خرجت وهي تتمتم كمن تحدّث نفسها بحنق :

- أوغاد.. أوغاد.. منافقون .. أوغاد .

نظرتُ إلى عقاربِ ساعتي فشعرتُ بالارتياح . لم يبق وقت طويل على موعد قدوم وليد لمقابلتي . لا أعرف حقا إن كان هذا هو اسمه الحقيقي أم لا رغم إنّني تظاهرت مساء الأمس بتصديقه . على أيّة حال لست مهتمّة بأن يكون اسمه وليد أو فريد أو مجيد أو قنّبيط أو حتى فلفل !!.. المهمُّ هو أن يتحقق ما أرجوه من هذه المقابلة .

استبدلتُ بالطّاولة التي أجلس عليها تلك التي كنت أجلس عليها مساء الأمس حين أبصرني، كي أوفّر له اليوم فرصة رؤيتي بسهولة دون أن يُضْطرَّ لتقليب بصره بين بقية زبونات المقهى..

لا أريد أن تهب نقطة سذاجة في حذري لذوقه حق تغييري بفتاة أخرى هذا المساء، فمثل تلك الصُّدفة التي جعَلت مثله يقترب منّي بالأمس قد يصعُب أن تتكرَّر لتسير فُصُولها بمثل النَّجاح الذي أنجزته .

لم تمضِ نصف ساعة حتى أبصرته يدخل المقهى.. حين رآني ارتسمت على وجهه ابتسامة استطعت قراءة معناها الذي لا شك بأنّه ظنَّ أنني أدركت عكسه .. بدا واثقاً ثقة من يظن نفسه قد غدا ممسكًا بمقاليد الخوض في محيطات عالم الأنوثة ، ومتمكناً من ذلك بموهبةٍ سرِّية خاصَّة، جعَلَت الأمر في حياته أشبه بعادة أكثر يُسرًا من مقدرته على تحريك المشط في شعره كلَّ يوم .

أطلقَ صفيرًا خافتًا مفعمًا بمعاني الإعجاب وهو يجلس على المقعد المقابل لي، قبل أن يقول :

– واو .. تبدين اليوم أكثر جاذبية من الأمس .

نكست رأسي الباسم فيما يشبه الخجل قبل أن أقول بـــصوت نصف خافت :

– شكرًا لكَ .

قال وقد بدا أن ثقته بنفسه قد رأت مني ما يتيح لحركتها مساحات أوسع من الحرية في طريق سيره نحو هدفه :

- علام الشكر ؟؟.. أنا لم أقل شيئًا بعد في هذا الجمال الذي يستحق مُعلّــقات شعرية معاصرة كي تهبه بالكاد اليسير من حقه.

قلت لنفسي بصمت :

"ها قد وصلنا، أقطع ذراعي من منتصفها إن لم يقل لي بعد قليل إنه لم يرَ مثلي من قبل !!."

في لحظة وصولي إلى ذيل ما قلته لنفسي سمعته يقول لي :

- سبحان الله !!.. أعترف أنني قد رأيت فتيات من قبل، وعرفت أخريات من قبل ، لكن مثلك أنت لم أرَ طوال حياتي.. هذا الجمال، الخجل اللطيف ، الرّقة التي لا نهاية لها .. هاتان العينان اللتان تسحبان روح المرء نحو فراديس مجهولة الأبعاد.. العينان اللتان لا يستطيع المرء حين يقع بصره عليهما أن يفرَّ منهما إلا إليهما ..

ثم أطلق تنهيدةً بدت لي مدروسة إلى حدٍّ جعلــها ســافرة الاستهلاك ، وقال :

- كم أنا محظوظ بمعرفتك ..

- وأنا كذلك ..

- انظري .. لقد أحضرت لك اليوم معي المبلغ الذي طلبتِ أخذه مني مقدمًا بالأمس .. كما أحضرت لك هاتفًا محمولا كي يغدو اتصالي بك أسهل في المرات المقبلة .. هيا بنا الآن .

قلت كالمتسائلة :

- إلى أين ؟

- إلى شقتي .. ألم نتفق على ذلك بالأمس ؟!..

أطلقت زفرة رافقتها نظرات منكسرة وملامح مشحونة بمعاني الحزن وتأنيب الضمير قبل أن أقول :

- سامحني يا رب، أنت تعلم أن لا شأن لي بهذا الطريق، لكنني مضطرة .

قال بنبرة متخمة بحنان دون جواني لا يدركه إلا الراسخون في التجربة :

- لا تقلقي. صدقيني إنّ الأمر أسهل كثيرا مما تظنين، وأؤكد لك أنك لن تحزني بعدها معي أبدًا ، وستندمين على الأيام التي فاتتك قبل معرفتي .. وفوق هذا ستتمكنين من شراء أدوية والدتك المريضة وأكثر بهذا المبلغ الذي بين يديك .. المهم ، هيا بنا بسرعة ، فالوقت يمضي هدراً ونحن هنا نتحدث ..

نهضت بعد أن وضعت مغلّف المال الذي وضعه فوق الطاولة والهاتف المحمول الجديد الذي أحضره معه في حقيبتي وأنا أقول بصوت منكسر :

- أرجو أن لا يكون ندمي على ذلك معك عظيماً.

قال بنبرة مفعمة بـــ(دون جوانيّة) واثقة :

-لن يكون .. وأنا أراهن على ذلك بكل ثقتي .

خرجت معه من المقهى، بينما كانت كفه تعبث بسلسلة مفاتيح سيارته بنشوة انتصار واثق. وقبل أن نصل إلى موقف السيارة بخطوات، وقفت فجأة لأقول له بصوت يطفح بالرّقة :

-أوه .. لا أدري ماذا أصاب حذائي، إنني بالكاد أســتطيع التحرك به .. هلاّ أمسكت بحقيبتي لحظة لأجلي كي أرى مـــا المشكلة يا حبيبي ؟

وقبل أن يدرك انتباهه بأن حقيبتي قد انتقلت إلى كفه، كان كل من كانت خطواته تجتاز ذاك الشارع في تلك اللحظة قد التفت سمعه إلى صوت صرختي المستنجدة أمام ذهول الشاب الممسك بالحقيبة :

-آآآآآآآآآآه .. النجدة .. يا عالم يا نـــاس ، الحقـــوني .. أمسكوا اللص .. المجرم .. المجرم .. حقيبتي .. أنقذوني ..

تراكض الناس إلينا بنظرات تضج بتساؤل ذاهل ، في اللحظة التي كانت السكتة الفكرية التي أصابت ذهن الشابّ المرتبك تدفع قدميه لمحاولة الفرار دون أن يتخلّص من الحقيبة التي مازالت في يده .. لكن الناس سرعان ما أمسكوا به قبل أن يصل إلى موقف سيارته، أو حتى تذوب خطواته عن مرأى أبصارهم في أيِّ زحام قريب .

كانت موهبتي في استدعاء البكاء أية لحظة تعمل عملها أمام جمهور الطيِّبين والفضوليِّين من الناس الذين أحاط بي معظمهم من الرِّجال والشبان والأطفال، قلت بما يشبه هلع تأثير الصدمة من بين شهقات بكائي لرجل وقور قدَّرت أنه من عمر والدي :

–الحقني يا عم، أنقذني منه .. أرجوك .. وحش .. شــرير، كان يلاحقني من قبل أن أغادر المقهى بكلمات مرعبة تنمُّ عـــن أنه كان ينوي اغتصابي.. ثم تــشبث بحقيــبتي.. يــا إلهـــي .. كابوس.. كابوس .. لا أصدق أن ذلك يحدث لي .

قال بنبرة مُفعمة بحنان أبويٍّ أشبه بشفقة من مرَّت بناته على خاطره وهوَ يحاول تهدئتي، بينما كنت أرتجف كمن مازالت أحاسيسه تحت تأثير صعقة مروِّعة :

– لا حول ولا قوة إلا بالله العليِّ العظيم .. لا بأس عليك يا بنتي .. اهدئي.. أنت بخير.. لم يحدث شيء .. اهدئي وسمِّي بسم الله .. لا تبكِ .

ثم التفت إلى ذاك الشاب الذي تقاسمتْهُ قسوة أيـــدي النـــاس، وقال بنبرة غاضبة :

–أهكذا تفعل بالآمنات المطمئنَّات من بنات الناس وهنَّ يمشين في طريقهنَّ ؟! ، ألا تخجل من ربِّك ولا من نفسك ؟؟ .. ماذا لو فعل ذلك أحدهم بواحدة من شقيقاتك أو قريباتك ؟؟.. لكنني لا أقول سوى تعساً لمثل هذه التربية الفاسدة .

قال صوت رجل من بين أصوات لغط جمهور المارَّة المحيط بنا:

–هذه النماذج المنحرفة لا يربيها إلا سنوات وراء قضبان السجن .

بصق شاب آخر عليه قبل أن يقول بحدَّة :

–هذا هو أقلُّ ما يستحقه أمثالك أيها المجرم القذر .

قالت فتاة لصديقتها بصوت مسموع يطفح غنجاً :

–أوف .. يا له من مخلوق مقرف . مسكينة تلك الفتاة ، لو كنت مكانها لأغمي عليَّ هلعا بمجرَّد التفات سحنته الكريهة نحوي..

وفي الوقت الذي كان فيه الشاب الذي أخرَسَت مقدرتَه على التفوُّه بحرف لكمةُ يدٍ مجهولة تدفق على إثرها الدمُ على جانب فمه يدير بصره حوله بنظراتٍ تصرخ ذهولا عاجزًا ، اقتربت منه سيدة جاحظة العينين تبدو في أواسط العمر وقرعت كعب فردة حذائها التي كانت يدها تمسكها برأسه وهي تقول :

–خذ أيها السَّافل.. هذا أقل من جزاء من يروِّعون النِّساء الصغيرات .

وهنا تصاعَدَتْ ضَحكات عابثة لأطفال استدعاهم الفضول لبتر لذَّة لعبهم كرة القدم في الجوار، والوقوف أمام إثارة المشهد الذي باغت حركة سير خطوات المارَّة في هذا الشارع .. بينما

كانت شهقات بكائي المرتعش تزداد عمقًا . لم يكن عندي شك بأن لون جفني وشفتي وبشرتي التي أعرف ألاعيبها جيدا قد بلغ باحمراره بعد هذا البكاء حدودا تذيب الأفئدة المصفحة ، فتسيل حنانًا وشفقة عليّ بنظرة واحدة ، و لم أكن بحاجة إلى مرآة كي أتأكد من إنجازات جمالي الشاب وبراءة ملامحي التي تجعلني أبدو أقرب إلى العام الثامن عشر من العمر، رغم إنني تجاوزت عامي الثالث والعشرين بأسابيع ، فقد كانت عيون الناس المفعمة بالعطف والتصديق الذي لا يشوبه شك هي مرايا بصري في تلك اللحظة .

اقترب منّي ومن الرجل الوقور الذي مازال يحاول تهدئتي شاب بدا فقير الهيئة ، مفعما بروح شهامة مفاجئة ، بخطوات متسارعة ونظرات بدت مفعمة بالقلق عليّ ، وقدّم لي زجاجة مياه معدنية باردة تطوّع بفتحها من تلقاء نفسه دون أن يتفوّه بحرف .. ارتشفتُ جرعةً منها بينما كانت شهقات بكائي تتقازم ، ثم نظرت إليه من خلال رموشي التي ورثت طولها المبهر عن رموش خالتي ، وأورثتْها الدموع جاذبيّة أدرك كم هي جبّارة التّأثير وأنا أقول له بصوت مفعمٍ بالرّقة :

– شكرا جزيلا لك .. شكرًا .

ثم حوّلتُ بصري عن عينيه اللتين صوّرتا سعادة تترنح بما قلت ، وأخذتُ حقيبتي كي أغادر.. قال لي الرجل الوقور :

– هل أوصلكِ بنفسي إلى بيت أهلك ؟ .

– كلا، إن سيَّارتي قريبة .. شكرا لك يا عمٌّ .. أنت لم تقصِّر معي .

– هل أنت بخير ؟.. هل أنتِ متأكدة من أنكِ تستطيعين القيادة بنفسك في هذه الساعة ؟ ..

– نعم .. أنا بخير .. لا تقلق .

لم أمانع حين أصرَّ على أن يوصلني إلى باب سيارتي الصغيرة كي يطمئنَّ عليَّ. وحين اضطررتُ للتوقف بسيَّارتي أمام ضوء إشارة المرور الأحمر بعد اجتياز شارعين آخرين، ألقيت نظرة اطمئنان مفعمة بالرِّضَا على مغلَّف المال الذي بداخل حقيبتي. لم أتوقَّع الهاتف المحمول قبل أن يصل إلى يدي، لكنه على أيَّة حال إصدار أحدث من هاتفي العتيق الذي يثير سخرية الصديقات المرفَّهات والذي اشتراه لي والدي قبل ثلاث سنوات.. قبل حتى أن تهبني شقيقتي الكبرى سيَّارتها القديمة في عيد ميلادي الماضي!.. إنَّها مكافأة ملائمة لذكائي رغم إنها ليست مكافأة باذخة السخاء .

انطلقتُ بسيَّارتي فور دعوة لون الضوء الأخضر بالانطلاق ، وأنا أقول لنفسي أمام خيال صديقتي غادة :

– من قال إنَّهم جميعًا ..... بلا فائدة ؟! .

# رَقصَةُ التُّخمَةِ

قبل أن ألعن نفسي للمرَّة الثانية ، اكتشفتُ بعد أن فتحتُ عيني أني ما زلت أتنفس ، فعاودني حقدي السحيق على حياتي التي صار صبري على عفونة أيَّامها توأماً لعلاقة الطنبوري بحذائه المهترئ .

وأنا أحدق في بياض السَّـقف بعينين جليديَّـتين، تذكرتُ أنِّي ألقيتُ بجَسَدي على الأرض منذ عودتي لأنام بملابس الخروج نوماً يُنافسُ سكون الجثث الغضَّـة. ثم تذكرتُ أنّي لم أعُد من عملي يوم أمس كما في كلّ يوم ، بل تسكَّعَتْ خُطواتي الكسولة بإحباطها طويلا في شوارع المدينة هيئة أحمق محترف ، قبل أن أعود ليلا إلى كآبة وجه حجرتي المُتخمة برائحة ما صرتُ أظنُّ أنها أنفاس حماقتي المُعتَّـقة بين جُدْرانها .

تمرَّدَ صوتُ قرقرة أمعائي على ملكوت الصَّمت من حولي ليذكرني بخوائها، لكنَّ ذاكرتي المُرهَقة عَجـزَتْ عن تأكيد وقت الساعة التي مسَّ فيها لساني شيئًا يؤكل من يوم أمس ، بينما أكدَتْ لي رغبة نفسي أنَّها تعاف الطعام هذه اللحظة رغم الجوع .

أشعلتُ سيجارة وجدهّا في جيبي وبدأتُ أنفث دخانها في الهواء ببطء دون أن أنهض من رقدتي على الأرض. فبدأتْ ذاكرتي تستردّ يقظتها قبل أن يصعقها صوت دقات ساعة الجدار ثمان دقات .. في مثل هذا الوقت من كلّ صباح أكون واقفاً أمام جمود عيون تلاميذي بلسان يجترُّ على أذهانهم درسا من دروس اللغة الإنجليزية ، لكنني اليومَ لم أذهب ، ولن أذهب غداً .. ولن أذهب حتى آخر يوم من حياتي.

انتفض الرَّجل الذي يسكنني حين سمعني أفكر بذلك ، وقال لي بسخرية وقاحته التي لا يتخلى عنها:

- أحقاً لن تذهب ؟

- أجبت بلهجة جافّة :

- لا

- لماذا ؟.. ماذا حدث ؟!

- أنت تعرف كل شيء، فلماذا تسأل ؟

- أحاول إرضاء فضول شهيّة دهشتي مما حدث !

قلت بغيظ :

- ألستَ أنتَ من حرَّضني على ذلك أيها الوغد القذر ؟

- حرَّضتك على ذلك مرَّات من قبل ، لكنك كنت ترفض.. لماذا اليوم بالذات ؟!

أطلقت نَفَسًا طويلاً من دخان سيجارتي قبل أن أقــول لــه بعينين ساهمتين :

– لم أعد أحتمل .. لقد طفح كيل تطاول ذاك الأصلع البدين الذي يلقبونه مدير المدرسة عليَّ ، إلى الحدِّ الذي وصل بوقاحته إلى تهديدي بجبروت قدرة سلطته على فصلي .. شعرت في تلك اللحظة أنني في موقف عبد ناصيَتُه بين يدي من يظنُّ أنَّه سيِّده، وبدأَتْ أعماقي تغلي. أناً لستُ عبداً، أنا رجلٌ حرٌّ أمتلك مقدرتي على البقاء في عمل أو مفارقــته، ومثلما اخترتُ أنا تلك الوظيفة وجئت إليها بنفسي، فإنني أنا .. وأنا فقط المخلوق الوحيد الذي يحقُّ له ترك ذاك المكان من تلقاء رغبتي .. وإذا كانت غطرسة ذاك المُغفَّــل البدين تُعمي بصيرته عن رؤية ذلك, فإنني أدرك جيِّدًا أنَّ مجرَّد عدم ذهابي إلى المدرسة دون أن أقدِّم استقالتي أو أرضي غرور سلطته بتسليمي قرار فصلي بيده ، سيجعل أعماقه تتقلقل غيظًا .. وربما ..

– وربما ماذا ؟

أجبت بنصف ابتسامة تتقاسمها روح السُّخرية والشَّماتة :

– وربما يصاب بالسَّكتة الدِّماغية .. فهو لم يعتد على أن يشقَّ عصا طاعته مخلوق قبلي .

– لكن لماذا هدَّدك بالطرد ؟

- لــ لا شيء ..

- لا شيء ؟!! ..

- لا شيء إلا أنه مخلوق مُعقّــدٌ .. الله أعلم بتلك العقدة السرِّية التي توسوس له بمعاملة الطلاب والأساتذة وجميع بقية الموظفين بتلك الغطرسة الفرعونية ، وتقــتصُّ منهم لذنوب لا يُنجبُها إلا عبث الشيطان بين جدران خواء جمجمته ... قد لا يكون ما فعلته صوابًا، أو قد يكون كذلك .. لم يعد ذلك الآن يعني مبالاتي.. ما أعرفه أنني لم أعد أحتمل.. وما أنا متأكّد منه أنني كنت سأموت لو بقيت بين براثن ديكتاتورية ذاك الفرعون القزم، الذي كنت أراه مجنوناً، ويراني مجنوناً !! ..

لم يعد بوسع ذاكرتي استحضار توقيت يوم أول حديث دار بيني وبين هذا الرجل الذي يسكنني ولا يراه سواي. لكن صداقتي السِّرِّيــــةُ اللّدودة به تفاقمت إلى حدودٍ صارت تمنعني من السَّيطرة على تطَفُّــله القسريِّ على كلِّ خطوةٍ من خطوات حياتي. ربَّما كنت مجنوناً .. فكرت بذلك من قبل حين اتَّهمتني ألسنة جريئة ونظرات أشد أو أقل جرأة بارتكاب أطوار لا يُنجبها إلا الجُنون، بدءًا بلسان والدي رحِمَه الله تعالى وصولا إلى نظرات الجيران من حولي .. وصل ذلك بأفكاري إلى الإيمان بأن لا شكَّ أن الحقيقة لا تتخلى عن واقع مؤكد من اثنين ؛ إمَّا

أنني لست إلا مجنوناً بين أقوام من العقلاء ، أو أنني العاقل الوحيد بين أقوامٍ من المجانين!.. وبما أن المنطق لا يقبل أن أكون أنا الوحيد الذي يدرك الصواب بينما الجميع على خطأ ، فلا شكَّ ولا ريب بأنني أنا المجنون.. وكي لا تتأكد شكوك من حولي تجاه جنوني فأجد نفسي بين جدران حجرة من حجرات المصحَّـــات العقلية، اخترتُ الصَّمت والانطواء على أفكاري بين أكداس من كتبي التي تحْجب اليوم سبعة من جدران مسكني، وبين حواراتي السرِّية مع ذاك الرجل الذي يسكنني ، والذي أشعر أنه يعرف عني دومًا فوق ما أعرف عنه .

في البداية كانت العلاقة بيننا مُفعمة بالمودَّة . كان هو المخلوق الوحيد الذي بوسعي البوح على مسامعه بجميع أسراري وأخطر أفكاري دون أن أخشى قسوة التوبيخ أو سوء الفهم، ولم يكن يتوانى لحظة في الوقوف إلى صفِّي ضدَّ وخزات الحياة اليومية واتهامات الآخرين. كان شفاف الصدق معي في ذمِّه لبعض تصرُّفاتي ومدحه لكثير ممَّا ذمَّني عليه الناس من أفعالي دون نفاق، كما أنه كان الإنسان الوحيد الذي يُتقن لغة إرضاء شهيتي النهمة دوما للحوار، في بيئة لا تعترف بغير حدَّة الجدال، إلى الحدِّ الذي صيَّرني مُولعًا بالحديث معه في كلِّ ساَعة .. لكن مع السنوات بدأ جدارٌ من العداوة يتسلَّق حدود العلاقة بيني وبينه .. لا أدري كيف حدث ذلك !! ، لا أدري منذ متى صار يجرؤ على شتمي واحتقاري وصبِّ جام لعناته على أقوالي

وأفعالي طوال الليل والنهار!!.. لكن ما أدريه أنّ ذاك الحقد الذي اغتال صداقتي له زجَّ بي في دوَّامة من الضياع والكآبة، وغدوت من بعد عداوته وحيدًا مرَّة أخرى، وقد ازداد تعداد مَن يعجزون عن فهمي واحدا آخر.. فتفاقم حقدي على حياتي وعلى الناس أكثر.

قلتُ له بحنق وشيء يشبه بوادر الاختناق يحتلُّ حنجرتي:

- أنت السبب في شقائي أيُّها الأحمق .

تساءل بنبرة خبيثة :

- أنا ؟! .. لماذا ؟.. ماذا فعلت بك ؟؟

- بسببك حدث لي كلُّ ما حدث مذ عرفتك حتى اليـــوم ، وبسببك يحدث لي كلُّ ما يحدث .. بسبب تسلُّطك القاهر على أفكاري صرتُ رجلا مرتبكًا، لم أعد أثق بشيء حولي، ولم أعد أثق حتى بنفسي .. أنا اليوم رجل وحيد .. ضـــعيف.. هـــشٌّ مكسور.. وكلُّ هذا بسببك أنت أيها القذر.

لم يُحاول ذاك الحقير الدِّفاع عن نفسه . كان يدخِّن وهو ينظر إليَّ بصمت يسخر من عربدة التهاب غيظي دون أن ينبس ببنت شفة عدا دخان لفافته التي لم تصل إلى حدود الاحتضار يوما .

انفجر غيظي صائحًا به :

- أجب أيها الجبان القذر.. أجب أيها الوغد القزم.. دافـــع عن نفسك إن كنت رجلا..

قال ببرود من بين شفتي ابتسامته الساخرة :

-تقول إنني أنا السبب في شقائك .. أنسيتَ أنني الوحيد الذي احتملك طوال الأعوام الماضية أيها الجاحد ؟؟.. لن أسرد على مسامعك قائمة بأفضالي التي يصعب حصرها على ذهنك الّذي تشرنقه قشرة سميكة من البلادة .. لكن يكفي أنني الوحيد الذي لا أحرمك من لذّة شتمي وصفع مشاعري بألفاظك البذيئة ، بينما تحرم من ذلك أمام أيٍّ شخص آخر.

-أنا أكرهك.. أمقتك.. لولاك لكنت شخصا آخر عمًّا أنا عليه اليوم .

- شخص آخر ؟؟.. من تريد أن تكون ؟؟.. أتظن أنك مخلوق ذكي عبقري التميز ؟؟.. لا تحلم بذلك أيها الأحمق .. انظر إلى نفسك ، إنك اليوم وأعوامك تقترب من خاتمة الثلاثين، وحيد بائس فقير متصعلك ، دون أسرة أو عمل أو جاه أو مال سوى هذه الدار الصغيرة الحقيرة التي ورثتها عن والدك.. من أنت ؟؟.. ، إنك لا شيء، لا أحد.. أنت مخلوق غبيٌّ فاشل ..

- اخرس .

-فاشل.

- دعني وشأني.. لا أريد أن أسمع صوتك الكريه .

- فاشل.

حشدت طاقة فمي وأطلقت على وقاحته شلالا من البصاق وأنا مازلت مستلقياً فوق الأرض على ظهري، فشعرت برطوبة رذاذ اللعاب ترتدُّ إلى وجهي بسخاء كثيف.. وسمعت صدى قهقهته الساحرة يتصاعد متضخمًا بين جدران جمجمتي .. نهضت من رقدتي والشرر يتطاير من جميع خلايا كياني، وأنا أصرخ بحنق متصاعد:

– الويل لك .. سأريك من أكون ! ..

وقبل أن أتم وقوفي على قدمي طالعتني صورتي المرتسمة على مرآة الجدار الطويلة..شعر أشعث مبعثر..عينان غائرتان مشحونتان بغموض عميق مجهول القرار.. لحيةٌ بدأت شعيراتها تتمرد فوق مكانها من وجهي دون أن أفطن إليها.. ربطة عنق متهدِّلة فوق قميص متغضِّن بدا شطر ذيله متهدِّلا خارج سروالي الطويل.. كف مرتعشة بعروق نافرة وجسد يكاد يبلغ نحوله حدود المرض.. لم يكن هذا الشخص هو أنا بشعري الذي لا يفارقه التأنُّق، وعينيَّ الصارختين بوميض سافر الجاذبية على وجه اعتاد مرور أدوات حلاقتي على مسامه كلَّ صباح، ولا ثيابي المسرفة في ترتيبها على الدوام على جسدي الرياضي الممتلئ في رشاقة.. كانت صورته هو!!..

صرخت بغضب هستيريِّ الجنون وأنا ألقي على الوجه الواقف في المرآة بزجاجة حبر ضخمة وقعت عليها يدي، فعانق صوت تناثر شظاياها صرخاتي المشحونة بروح الانتقام :

-أتحسب أنك قادر على احتلالي أيها المسخ الجبان ؟.. أتظن أني أستسلم بسهولة أمام ألاعيبك وحيلك القذرة ؟؟.. هيهات أيها النذلُ الرّعديد.. هيهات.. ليس أنا من يخسر الحرب بهـــذه السهولة .. ليس أنا .. قال بنبرة ساخرة :

-انتهى وقت معركتك الخاسرة يا صديقي حفيد الـــسيد ( دون كيشوت ) وانتهى الأمر.. يجب أن تعترف بفشلك في التخلّص مني رغم محاولاتك البائسة الهــشة.. أنــسيت أنـــك حاولت مرات كثيرة خلع مبادئك عن جسد أفكارك لعلـــك تتخلص مني ففشلت ؟؟.. أنسيت كم مرَّة بذلت جهدك لقلب أساليب حياتك لعلَّ صوتي يذوب بين أحداث أساليب حياتك الجديدة فأخفقت ؟؟.. أما عُدت تذكر كم مرَّة دفَعَتك تلـــك الرَّغبة للانتحار كي تفرَّ من صوتي فانهارت جميـــع محاولاتـــك خاسئة أمام حرمانها الوصول إلى نقطة النجاح علـــى الـــرغم منك.. لا تحاول، لقد فاتك وقت المقدرة على إعـــدامي يـــا رجل.. ولم يبق لك إلا الاعتراف بذلك دون مكابرة.. كـــان صوته يمضغ شرايين رأسي بقسوة ملعونة الشراسة ، بينما كان صدري يعلو ويهبط زافرا أنفاس الغيظ .. قفزت ممتطيًا أقصى ذروة جنون غضبي نحو جدار مـــن جـــدران كـــتبي أبعثرهـــا وصراخي المرتبك ينتفض بين جدران الحجرة :

-أنا أكرهك .. أمقتك .. أحقد عليك .. مُت أيها اللعين.. سئمتك وسئمت هراءك الصدئ طـــوال الأعـــوام الماضـــية .. سأقتلك .. نعم .. سأقتلك وأتخلّص منك .. أتظن أنني عـــاجز

عن الوصول إلى طريقة لقتلك أيها الملعون ؟؟..لا .. أنـــا مَـــن يستطيع قتلك.. فأنا أهلٌ لإعدامك وتدميرك إلى الأبد يـــا مـــن تظنُّ نفسك حفيد راسبوتين .. سأريك.. سأريك أيها اللعـــين المجنون.. سأقطع عنك غذاءك الذي أشبعك وأتخَمَ ذهني طـــوال السَّـــنوات الماضية .. سآكل هذه الكتب اللعينـــة.. ســـآكلها كلها..

خرجت من داري راكضاً إلى الشارع ببصر لا يرى وسمع لا يسمع غير أصوات قرع الطبول في رأسي.. استوقفتني زوجة الجار المتهتكة بتحية متعمدة اعتدتها ترتدي صوتها المغناج ليبتر ذهولي لحظة ويصفعني بصورة يوميَّة أكرهها من وجه عالم واقعي البغيض . لطالما تصاعدَتْ شَـــهـــيَّـــتي فيما مضى لتأديب تلك الوقحة التي تظنُّ أنَّ لها ما يكفي من الجمال لبذله أمام بصر كلِّ عابر سبيل، لكن تهذيبي الإجباريَّ وخشيتي قسوة مخاض ألسنة الناس حرَماني من لذة التعبير عن احتقاري لها كما أشتهي، لكنني حين رأيتها اليوم، انتابني شعور ذكَّرني بشعور بطل رواية الغريب لألبير كامو ذات لحظة، ووددت لو أن بيدي مسدَّسًا لأطلق عليها الرصاص فأريح وجه العالم من تشويهها له إلى الأبد .. لكنني اكتفيت بأن بصقت عليها دون لحظة تردد ، ومضيتُ في طريقي مُسرعًا أمام نظراتها المصعوقة دون التفات.. ولم أجشِّم أعصابي عناء الردِّ على تحايا كثيرٍ ممن كنت أدرك أنهم ينافقونني بينما يبطنون كراهية أو سخريةً تجاهي .. لم يعد الأمر بالنسبة إليَّ مُهِـــمًّـــا بعد اليوم ..

حين وصلت إلى دكان الحاج أبو عدنان لبيع الأواني المنـــزلية طلبت منه أن يعطيني أكبر قدْر في دكّانه. أخرج لي قدرًا قال إنَّها ملائمة لطهو ما يشبع دزينة من النَّاس دفعة واحدة,فقلت له إنني أريد قدرا يتسع لما يكفي مائة من الضيوف على الأقل. طلب مني الانتظار قليلا ليبحث في مخزن الدكان قبل أن يعود عليه ملامح الظفر بعد دقائق وبين يديه ما طلبت، وقبل أن يسألني بفضوله المعتاد عن السبب الذي لأجله أريد هذا الشيء؛ سارعت بإخراج جميع ما في جوف محفظتي من مال دون أن أعبأ بعدِّه ، وأعطيته إياه، ثم خرجت بالقدر دون التفات.

حين وصلت إلى الشارع الفقير الجاثم تحت مسكني، أشعلت نارًا لأنصب فوقها القدر التي اشتريتها، بينما تحلّق الأطفال المتسوّلون حولي بنظرات صارخة الترقب، وأنا أملأ القدر حتى منتصفها بالماء .. هتفتُ بهم في ابتهاج مخبول قبل أن أدخل مسكني :

-أحضروا صحونكم وانتظروني.. سأجعلكم اليوم تشبعون جميعًا .

بدأت بإلقاء أكوام من الكتب عبر نافذة حجرتي وأنا أغني أغنية هزلية كنت أستخفُّ بكلماتها ذات يوم.. ثم اخترت مجموعة من الكتب التي كانت مفضَّلة لاهتمامي على مدى السنوات الماضية، أتخمت جوف كيس قمامة أسود بها قبل أن

أخرجها من الدار، وأملأ بصفحاتها قدر الماء المغلي المنصوب في وسط الشارع ، ثمّ أبدأ تقليبها بأكبر مغرفة حساء وجدتها في مطبخي أمام دهشة أبصار الأطفال ذوي الأسمال المُرَقّعة.. ثم أدعوهم هاتفًا في نشوة لم تخطر أحاسيسها على إدراك روحي من قبل :

- هيا.. تعالوا .. اقتربوا لأغرف لكم جميعاً... تعال أنــت ، سأملأ لكَ صحنك بوجبة من ذهن فولتير .. وأنتِ ، اقتربي كي أغرف لك شيئا من قريحة شكسبير .. أما أنتَ يـا ذا العيــنين الحالمتين فسأشبع صحنك من همسات قلب أبي العلاء المعري .. هيا .. أسرعوا بصُحُونكم الخاوية إلي.. لا تخجلوا ..

بعد أن غرفت لهم جميعًا، شعرت أنني أحلق في فضاءات شاسعة من شعور مجهول العنوان.. الهواء المشبع بحرارة بخار غليان ماء القدر يلفح وجهي ويسلق كل خلية من خلايا جسدي، وأنا أتنفس تنفس من يشارف على الاختناق، بينما حمرة السماء تُسارع في دورانها أمام ارتعاش بصري.. تواترت أبيات شعرية عتيقة على طرق أبواب ذاكرتي فجأة .. وبدأ صوت في داخلي يعزف ألحان موسيقى قافية تلك الأبيات بعناد لحوح، وكأنّ الشاعر (علي بن الحسين المغربي) يهمس في صدري من عالمه الآخر بهذيان أيامه المحمومة ، لتنبعث في هذه اللحظة على لساني بصوت مسموع. هتفت مدندنا بصوت متقطع الأنفاس على الرغم من رغبتي :

**درن درن درن دبي**

**أنا علي بن الحسين المغربي**

**سناجقي تهيئي .. عساكري تأهبي**

**ها قد ركبت للمسير في البلاد فاركبي**

**أنا الذي أسد الشرى**

**في الحرب لا تحفل بي !**

**ولم أزاحم أحدا على علوٍّ منصب**

**ولا دخلت قَطّ .. في عمري بيت الكتب..**

تردد خليط زحام أصوات الأطفال من حولي وهم يكررون وراء حنجرتي ببهجة سافرة :

**درن .. درن .. درن.. دبي**

**درن .. درن .. درن.. دبي**

ابتسمت نصف ابتسامة ساخرة تمرَّدت خلال لحظة لترتدي ثوب قهقهة طويلة .. ثم انطلقت بخطواتي راقصا حول القدر وأنا أهتف بهم :

-نعم .. هيا بنا لنحتفل .... كل خليَّة من خلايــا نفــسي متخمة بهذيان تلك القراطيس ، وها هي اليوم تتخم صحونكم..

هيا بنا لنحتفل .. لنرقص معا رقصة التخمـــة .. درن درن درن دبي .. درن درن درن دبي ..

وتردد صدى خليط أصوات حناجرهم الصغيرة وهم يرقصون دائرين حول القدر ورائي، ويصفقون بأيديهم ونعالهم على إيقاع هذيان الأبيات .. بينما كانت قهقهة الرجل الذي يسكنني تتفاقم بين جدران رأسي، لتهيمن بجبروتها على كل صوت ما عداها.. حتى صوتي .

## وَلِـمَـاذا أَنْـدَمُ ؟!

بدت لي حِــدَّةُ كلمات الضابط أسرع من أن يواكبها ذهول سمعي الذي لم يتشبث بغير عبارته الأخيرة :

- ............ ولك حق التزام الصمت حــتى تــستدعي محاميك .

التزمتُ الصمتَ براحة داخليَّة يغمُرُها هدوءٌ يُشبِهُ الإغماءَ، رغم إنني أعلم بأني لن أطلب محامياً للدفاع عن قضية يؤكد لي تشاؤمي فوق قرفي من سطحية عقول الذين سيمسكون زمام البت في أمرها بأنَّ طريق الدفاع عنها مسدود لا يُــفــضي لغير نهاية خاسرة ، ولن أتصل حتى بما تبقى من أهلي لإخبارهم بمصيري الذي لا تخشاه لا مبالاتي .

لا أعتقد أنني حقا رجل مذنب، ولا أظن أنني مخلوق مجنون، ولا أطيق أن أغدو أمام نفسي وغيري عاجزا يبذل ما بوسع جُبن عباراته في سبيل تبرير آثامه . أنا الذي عرفت منذ صغري كيف أرتكب ما تمليه عليَّ رغبة قناعاتي بإحساس تتــشبث به

روح إدراك مسؤوليتي المؤكّدة تجاه حتى ما قد يظنّه الناسُ أدنى إلى الخبل أو الحماقة . لذا فإنني وبكلّ ثقتي من أفعالي أعترف أنني ارتكبت ما أستحقُّ القبض عليَّ لأجله.. لكنني أؤكد مع ذلك في اعترافي أنني لم أطمع يوما قبل هذا اليوم بتحقيق تلك الأمنية على غير أرض خيالاتي من قبل. وأقسم صادقا أنني لم أكن عنيد الإصرار، ولا سابق التصميم والتصوُّر والترصُّد لخطوات تلك الفتاة لحظة واحدة ، قبل أن تتعمَّد هي ترصُّـــد خطواتي، وتصرَّ على اللحاق بي لإشباع سذاجة تصوُّرات أوهامها المغرورة .

كان دماغها الصغير يبدو لي ثملا بغروره حتى حدود العمى . حسناء عبد الجبار ، جزيرة الرفاهية الشابة المتخمة بدلال وجمال ينفق سحره ببذخ سافر على حسرة نظرات العيون النهمة.. طالبة كلية التجارة التي دللتها بركاتُ سُمعة والدها وزيرِ الصِّحَّـــة ، وشرنقَـــتها بهالة من نجومية ملأت غَرورها بسرور أوقد فيَ خطواتها مزيدا من التكبُّـــر المعجون برائحة الزهو وخُيلاء شعورٍ تفوُّق نادر على حظٍّ بقية طالبات الجامعة . دمية العينان الزجاجيتان ألّلتانِ تستبدلان لون قزحيـــتيهما على ذوق فصول مزاجها النهاريِّ كل يوم ، واللتان لم أنتبه إلى أنني كنت لهما طُمُوحاً سرِّيـــاً لم يفضح نفسَه مُـــتسوِّلاً اهتمامي إلا قبل أيام ، حين جعلتني مطارداتها البلهاء لخطواتي أتساءل في أعماقي عما إذا كنت قد رأيت خطَّ يدها من قبل على صفحة إحدى

تلك الرسائل المعطرة التي كنت أجدها مُخبَّأة بين صفحات دفاتري بأكثر من خطّ يد مجهولة الإمضاء، دون أن يعبأ اهتمامي بها أو بمن تدفعهنَّ عواطفهنَّ لصبِّها على الورق بقلوب أعماها سحر جاذبـــية وسامتي، لأنني كنت أراها أصغر من أن تستحق اهتمامي أنا..

أنا .. فريد طه .. رسالة العبقرية التي هبطت على الأرض متنكرة بثوب طالب جامعيٌّ شابٌّ ، لا ترى بصيرة العميان من حقيقة عبقريته إلا ما تستوعبه بالكاد ضحالة عقولهم التي يشفق ذكائي على غبائها بصمت ساخر..

هالة الجاذبية التي يصرخ شعاعها بوميض عيون الزميلات في إعجابهنَّ ، والزملاء بحسدهم ، والأساتذة بإكبارهم لذكائي الذي ليس كمثله ذكاء مرَّ على مقاعد كلية علوم الفيزياء قبل جلوسي عليها .

مغفلين كنت أراهم ، ومغفلات واهمات لا يُدركنَ حقيقتي, حقيقة العبقرية التي لم يروا برَمد عقولهم غير قشورها، بينما صورة لبابها تقبع كسرٌّ يشرنقه الحذر بين جدران جمجمتي وجدران مسكني، حيث أخبئ أسرار ما وصلت إليه أفكاري بتجاربي وأبحاثي العلمية التي لا يدري بها مخلوق سواي ، بانتظار اليوم الذي يستحق أن أسمح لها بالبزوغ لإذهال بلاهة هذا العالم الذي ولدت فيه قبل أوان عصري .

وقتي الذي كان بالكاد يسد رمق تجاربي وأبحاثي لم يكن يتسع لتفاهة النشاطات الاجتماعية التي لا تمتُّ بصلة قرابة لأجواء الجامعة. ثمة متعة سرية في نفسي كانت تدفعني للحرص على نشاطات وحفلات الجامعة ، حتى لو كان ثمنها هو قضم سويعات من بعض النهارات التي مهما التهمت مشاغلي أضعاف أوقاتها فإنها تظل في مجاعة مزمنة لأوقات أكثر .

وهناك، كنت أحسُّ بنظرات الرموش الطويلة، والجفون المرسومة بالكحل، تنغرس في مسامي بحنين أخرس، مهما أفلتت أو لم تفلت من وقوع بصري عليها متلبسة بثورة انقلاباتها الداخلية المتخمة بروح الحسرة، فيحتقرها صمت سخريتي بشيء من الشفقة على سطحية أبعاد تلك النظرات التي لا يتخلى عنها ذهولها الأبله أمام كل صورة أكوِّن بقعة حية من ألوانها، طعامي في مقهى الجامعة ، حركة عزفي على الكمان في فرقة الموسيقى الجامعية، تطوُّرات حركة ملامحي وأنا أحاور الزملاء بين جدران الحرم الجامعيّ ، اسمي المتربِّع على رأس أسماء أوائل الطلبة في نهاية كل فصل، أناقتي اللامعة ونشاط خطواتي في حلبة رقص حفلات نهاية العام الدراسيّ .. صُور أغدقت عليها شخصيتي التي يشرنقها غموضي الصامت وجفافي أمام فضولهنَّ بريقا ساحر الجاذبية ، وزادت جنون إعجابهنَّ تعلُّقا بي، كفراشات تندفع بلهفة أجنحتها نحو بريق ضوء مجهول !! .

لا وقت لدي أهدره على رغبات غنج الحسناوات اللواتي كنت أتعمد تجاهل نظراتهنَّ كي لا يطمعن بي، واللواتي لم أكن

أراهنَّ أكثر من عقول قزمة تتسوَّل أمنياها لفتةً لا تستحقُّها من نظر عقل عملاق، تَمَرَّدت عبقريته على عتق قوانين الفيزياء الحيوية والنووية ، لتبلغ حدود اكتشاف ما كان مستحيلا على جهل العالم طوال ماضي القرون الميتة. لا شكَّ بأنني سأصل قريبًا بمخاض عبقريتي إلى مقاليد السيطرة على غباء هذا العالم المُغفَّل.

رغم ثقتي التي لا أفصح بها لغير نفسي، لم يخطر يومًا لظنوني بأن تكون تلك الصغيرة المغرورة التي توَّجَتها سُمعةُ منصب والدها لتكون نجمة الجامعة قد وقع اختيار إعجابها عليَّ أنا بدلاً من الالتفات لأبناء أرباب مناصب المسئوليات العُـليا في البلاد، رغم إن قشور مظهري واسم عائلتي لا يفصحان عن أكثر من هوية شاب فقير، ينتمي بنسب ماضيه وحاضره إلى عامَّـة الشعب. وبخيار إعجابها كانت قد بدأت بصنع خاتمة مصيرها دون أن تدري، وقاد مصيرها حياتي إلى طريق مصير لم يخطر لتوقعاتي من قبل .

التهبت نقطة البداية يوم أمس. كنت أغادر الحرم الجامعي حين سمعت صوتها أشبه بموسيقى لاهثة، وهي تركض خلفي كي تبلغ حدود سرعة خطواتي :

- فريد ..

تظاهَرَتْ لا مبالاتي بالصمم عن سماع صوتها، ووددت لو أنني لم أنس سمَّاعات الموسيقى لتطبق على أذني، كي تكون حجَّة

لفراري المتصامِّ عن ندائها، واستمرَّت خطواتي تمشي في طريقها إلى مسكني بتـــسارُع منتظم .

عاود صوتها إلحاحه الذي تسلل شيء من اليأس إلى دلاله :

- فريد .. فريد .. انتظرني لحظة ، أرجوك ! ..

كان عناد رغبتي في الفرار منها أقوى عزيمة من الخضوع للالتفات إلى صوتها، فلم أتوقف ، لكن سرعتها نالت من خطواتي، ووجدت نفسي مضطرًّا للوقوف حين أبصرتُها تحجب الطريق أمامي وهي تلهث ببقايا كبرياء منكسر.

قالت بدلال عاودَته رباطة جأشه:

غدًا يوافق تاريخ يوم عيد ميلادي، وأودُّ دعوتك لحضور الحفل الذي سأقيمه لأجل هذه المناسبة.

أجبت بنبرة عجولة ترتدي ثوب اللامبالاة :

- أنا آسف يا آنسة حسناء، لا أظنُّ أنـــي ســأتمكن مـــن الحضور. عيد ميلاد سعيد مقدمًا، وأتمنى لك عمرًا مديدًا.

وسرعان ما تجاوزتها بخطواتي لأتخلَّص منها، لكنَّها استمرَّت بمواكبة سرعتي قائلة بعناد :

-لقد دعوت الجميع وسرَّهم القدوم لتلبية دعوتي ، أؤكـــد لك أنه سيكون حفلا مميزاً، أتمنى أن تحضر .

قلت بسرعة :

- لدي طوال يوم غدٍ شواغل لا تحتمل التأجيل.

أجابت بصوت يشبه التوسُّل:

- ساعة واحدة .. نصف ساعة.. أرجوك .

- كما أنني لا أستسيغ الزحام.

- كانت قاعة حفلات الجامعة أشدَّ ازدحامًا في حفل ختام العام الدراسيِّ الماضي، وقد رأيتك تستمتع بوقتك هناك.

ثم أخرجَت من بين دفاترها الكبيرة مُغلّفا فاخرا خشبيَّ اللون وقدّمته لي وهي تقول :

- ها هي بطاقة الدعوة، إنه حفل لصفوة الأصدقاء من نخبة المُفضَّلين عندي.

فكرت قائلا لنفسي بسخرية: ( منذ دقائق تزعم أنّها قامت بدعوة الجميع، والآن تُعدِّل زعمها وتقول إنه حفل للصفوة رغم إنني لم أعلم قبل اليوم أنني من أصدقائها أصلا كي أنتمي إلى نُخبتهم !، أخشى أن أكتشف بعد دقائق أنني أنا المدعوُّ الوحيد لهذا الحفل !! ) ..

قلت لها بما يشبه الجفاء :

- أنصحك بتوفير بطاقتك الثمينة لمن بوسعه تلبية الدعوة يا آنسة ، من الإسراف إهدارها على شخص متأكّد من أنه لن يأتيَ أبدًا.

قالت بصوت متوسّل :

- خذْها مِــنّــي على الأقل، أرجوك، ربّما تُغيّـــر رأيــك في وقت لاحق وترغب بالقدوم .

في اللحظة التي بلغت فيها أعتاب باب مسكني قرّرت أن آخذ البطاقة كي أتخلّص منها ومن عناد إلحاحها دون أن أنوي الذهاب حقّاً إلى الحفل.

قلت لها أخيرا بحروف عجولة وأنا آخذ البطاقة من يدها :

- شكرًا لكِ .

قالت بنبرة متلهّـــفة بينما كنت أحرّك المفتاح في باب الشُّـــقّـــة :

- هل ستفكّر بالأمر على الأقل ؟

أجبت على عجل وأنا أضع قدمي داخل شقتي:

- سأفكّر، مع السلامة .

أمسكَت الباب بكفّها قبل أن أتـــمكّن من إغلاقه فور دخولي، وقالت بما يشبه التوسُّل:

- لقد جفّ ريقي وأنا أحاول مواكبـــة ســـرعة خطواتـــك ثم إقناعك بتلبية دعوتي، هل لي بكوب من الماء ؟

أجبتها وأنا أقسم سرا في أعماقي بأنّ عناد الإلحاح الدّبق هو صفة أنثوية فاسدة تشبه المرض :

- لا بأس، انتظري هنا.

- قدماي تؤلمانني، صادف اليوم أن كان كعب حذائي مرتفعًا وأنا أركض خلفك، هل تسمح لي أن أستريح بالداخل ولو لخمس دقائق ؟

وقبل أن أفتح فمي لأعتذر كانت قد سارعت بالدخول، وجلست على أريكة حجرة الجلوس، ثم بدأ بصرها سياحته المشحونة بالفضول فوق أثاث الحجرة .

انتابني هاجس التورُّط لحظة. لم أُدخل مخلوقا آدميا إلى شقّتي التي أعتبرها معقل أسراري الخطيرة من قبل، وها هي مخلوقة فضولية مدلّلة لم تعتد أن يرفض لها أحد طلبا قبلي تقتحم بوّابة خصوصياتي المجهولة بمثل تلك الوقاحة الساذجة.

ربّما لو كان هذا الكنـــز الأنثوي الذي يمشي على قدمين قد وقع بين كفّي حظ شاب آخر لتشبّث بتلك الفرصة التي لا شك بأنه سيعتبرها من نوادر المعجزات التي لا تُقدَّر بثمن، لكن وقوع حظها التعيس بين كفّي مصير حظي الأكثر تورطًا وتعاسة هو أشبه بلعنة صبت السماء جام بلائها عليَّ وعليها ذات حين بغتة .. ثمة خاطر شرس في ذهني ينبض برغبة عتيقة مجنونة ، ويؤكد لي أن دخولها القفص المكهرب الذي قاومْتُ بضراوة جموح رغبتي بدعوة مخلوق آدمي إليه كي أحقق حلمي الذي لطالما وسوست لي به تطلعات مستقبل العلم على وجه الأرض .

قلبي ينبض أمام فرصتي اليتيمة ويدق في شرايين رأسي بشراسة خرافية الجنون، الفكرة تتمرد على عقلي لتسيطر على أحاسيسي وتتقمصها بمزيد من عمق الرغبة، الخطوات الوهمية بيني وبين حلمي الذي قد يكون ميلاد واقعه على يدي عبقري مثلي خدمة كبرى للبشرية تتقارب حتى تتلاشى في مخيلتي. لو لم يكن القدر مُصرًّا على تحقيق هدفه لما جاء بها بنفسه رغم مقاومتي. تلك الفرصة التي ناضَلَت في سبيل الوصول إلي أنا بالذات هي أكبر من مجرد صدفة بلهاء أستطيع السماح لها بالفرار من بين يدي وقتي. لابد وأن القدر قد اختار أن يقف بدعمه إلى صفي وصفِّ العلم والعبقرية هذه المرة ، فلماذا أرفض سخاء عرضه الذي لا أظنه يفكر بتكراره أمام جبني عن تحقيق مشيئته مرة أخرى ؟؟ ..

وأنا أعدُّ لها ما ستشربه في المطبخ، فكَّرت بأنني ربَّما لابدَّ وأن أساند القدر في لعبته، وبهذا أكون قد صنعت شيئا من قدر مستقبل عبقريتي التي تستحقُّ تضحيات التجربة..

صوت ما تتطلبه العبقرية من تضحية أضخم في قوة جبروت صراعه من صوت آخر قزم يذكِّرني بضعفي البشري أمام قرار إقدامي على ما أفكِّر به، واضطرابي لا يفصح لي عمن سيحسم انتصاره قبل فوات أوان الفرصة.

ابتسمَت حين رأتني أقدم لها عصير الكرز المحفوظ في كأس بلُّوري أنيق، وقالت بغنج أنثوي يبالغ في إسرافه:

– لم أتوقع من قبل أنك شخص لطيف إلى هـــذه الدرجـــة .. شكرًا لك .

–قلت لها بصمت ساخر : ( لو كنت ترين مـــا يـــدور بـــين جدران ذهني لفررت من هذا المكان قبل أن يصل الكـــأس الـــذي سيقع من يدك ..... إلى الأرض)

ثم أجبتها بصوت مسموع :

– سأذهب لحظات ، باستطاعتك المغادرة قبل أن أعود .

قالت بعينين تومضان بطموح عاطفيٍّ ساذج :

– كلا .. سأنتظر عودتك .

مشيت بخطوات مثلت فيها الرزانة حتى اختفيت عن أنظارها في ممشى الشقة الداخلي، ثم أغلقت الباب على نفسي بين جدران الحمام بإحكام وأنا أقول لنفسي :

( إنها فرصتها الأخيرة ، والفرصة الأخيرة لراحة ضمير بقايا ضعفي البشري . مازال أمامها وأمام القدر عشر دقائق قبل أن يبدأ المسحوق المخدر ببوادر مفعوله، لو ذهبت قبل خروجي فسأدرك حينها أن القدر لم يكن يقصد ما كنت أفكر به، وإن لم تذهب ، فسأدرك رسالة القدر العنيدة في رغبتها بتحقيق ما يصبو إليه ) ..

عندما خرجت وجدتها قد فارقت اليقظة بوجه منكفئ على الأريكة، بدا لي ذلك من حسن حظ خطتي السريعة، التي لم

يكن من مصلحة نموها وساوس خيالي بأن تلك الفتاة قد تفتح عينيها في لحظة الصفر، وأنا أهوي بحد ساطوري المسنون على عنقها بملء قوتي.

كان بصري قد شبع اعتياداً على رؤية الدم من قبل، وأنفي رافق رائحة الحمرة المالحة حتى حدود الإدمان .. ما زلت أحتفظ بعظام من هياكل المخلوقات التي مازال طعم لذة أمخاخها يغري لساني بطلب المزيد ، الطيور والأسماك والأبقار والأغنام وحتى القطط والكلاب والقرود والأحصنة والسناجب والسلاحف والفئران التي أشبعتني أمخاخها مازال لذكراها تحف احتلت أماكنها في خزانة حجرة معملي السرّيّ ، وهاهو حلمي القديم بتذوُّق مخٍّ بشريٍّ يتحقَّـــق ببركات الصدفة ، بعد أن قاومْت جبروت إغرائه إلى الحدّ الذي حرمني من دعوة أصدقائي إلى شقتي، حتى لا توسوس لي نفسي بالسطو على كنز جماجمهم ساعة انفرادي بهم ، فلا أقدر على كبح جماح رغبة أفكاري في أن تولد حقيقة على أرض الواقع.

لطالما اعتقدت أن الإسراف في تناول أمخاخ الحيوانات له فعل السحر في تغذية دماغي الذي تتنفس خلاياه روح العبقرية وحده، لكن شهية أحلامي التي كانت تتضوَّر شوقا لالتهام مخٍّ بشريٍّ طازج بدت لتوقعاتي أبعد من مقدرتها على التحقُّـــق . أظن أنني أستحقُّ معجزة المكافأة التي تحقَّـــقت اليوم لصبري ، والتي لا أظنُّ أنَّها تليق بغير مخلوق عبقريٍّ سيدعمه المزيد من الذكاء في

سبيل خدمة العلم والبشرية . ربَّما لو كانت تلك الفتاة قادرة على تقمُّص روح أفكاري والإحساس بجبروت ما أشعر لتوسَّلت إليَّ بنفسها أن أقبل مخَّها هدية مُضحَّية به في سبيل خير مستقبل البشرية . أنا رجل محظوظ أيها العالم الأبله .

كنت أستمتع على مائدتي بأطباق المخ النَّيِّئ والمطهوِّ بالتوابل صباح اليوم التالي، حين داهمت الشرطة مسكني . لا أدري كيف عرفوا بقدومها إلى هنا، ربما رآها أحد الزملاء وهي تلاحق خطواتي يوم أمس ، لكن هذا لم يعد مُهمًّا في هذه الساعة.

لكل عمل واجبه في هذه الحياة . كان من واجب الشرطة القبض عليَّ مثلما كان من واجبي سماع صوت نداء رغبة دماغي والإقدام على ما فعلت دون ندم . أعرف أنَّ لكلِ شيء في الحياة ثمنا، ولست مُغتمًّا لأجل ما حدث أمْسِ ولا مهتمًّا لما قد يحدث غدًا ، لأنني أعتقد أن الحياة أكبر كثيراً من حدود ضيق بصائر الناس، وإن لم أكمل حياتي هنا فستكون لي حياة ثانية وثالثة وعاشرة في عوالم أخرى أظن أنها أوفر عمقا وجمالا.

مازال طعم مخها ورائحته تسبح في فمي وأنفي حتى بعد أن ابتعدت بي سيارة الشرطة نحو المستقبل المجهول، كم كان لذيذا إلى الحدِّ الذي ضاعف شهيتي لالتهام المزيد . كم أشتهي لو أن بيدي مقاليد الجمجمة الضخمة التي ترتدي قبعة رجال الشرطة

على يميني، وكم أتمنى لو تسمح لي المحكمة بتحقيق رغبتي الأخيرة قبل إعدامي ..

أن ألتهم مائة دماغ بشري، لمائة عمر مختلف.

## كُلُّنَا نُرِيدُكَ !!

لم أصدّق بصري حين هتف مبتهجًا بأنه وقع عليها، راقدة في طريق عودتي لمترلي .. ناصعة النعومة، بنظافة تكاد تصرخ مؤكدة أنّها كانت تتعمد انتظاري أنا وحدي، كي يرتبط مصير مستقبلها بي أنا دون سواي.. إلى الأبد .

لا أدري كيف لم يسبقني أحدهم إليها من قبل !.. لكن ما أظنه هو أن حظّي كان في مزاج طيب هذا النهار، ليعبّد فرصة لقائي بها في طريق غفلت عنه خطوات المارة ساعة مروري ، وتَمتدَّ لها يدي دون أن يسلقنا فضول نظراتهم المسكونة بدهشة بلهاء.

أسرعت خطاي بها إلى منــــزلي بصبر تبرأ من تاريخ أجداده مذ رآها، وحرص حذري على تحريك المفتاح ببطء يرشو صمت صوت قفل الباب حين وصلت، ثم اندفعت إلى الداخل بخطوات تتحدى صوت خطوات أصغر نملة .. صرت ممتنًّا للحظ مرة أخرى لهذا النهار عندما لم أجد تلك السمينة المزعجة

التي كان الزواج بها حماقة من حماقات شبابي تقبع وراء الباب بانتظارها المتحفز لصبِّ جام توبيخها عليَّ لحظة وصولي ..

تنفست الصعداء، وركضت بغنيمتي السرية إلى الفناء الخلفي للدار قبل أن أظهرها للنور بحرص من تحت سُـترتي القديمة، لتكون أميرة جديدة على خيلاء كنْـزي الذي لا يدرك قيمته مخلوق سوى عشقي له.

لم يكن لسحر جاذبيتها مثيل مرَّ على ذاكرتي من قبل، بانسيابها الذي ورث من القوس انحناء ظهره، وسلكها الملولب الذي لا شك بأنه هو من حررها من ثقل بقية جسدها ، ومن أولئك الذين كانوا يلصقون بها آذانهم المتخمة بالأوساخ، وشفاه أفواههم برائحتها الكريهة، ليستعبدوا جهدها وقتما تشاء أمزجتهم دون أن يعبأوا برغبتها في الرَّاحة، حين شاء أن ينتحر بقطع ذيله كي يهبها الحرية، فيرسلني القدر إليها لأسبغ عليها المستقبل الذي يليق بها، وأرفع قدرها بمشيئتي من سماعة هاتف عادية بمرتبة خادمة مهملة، إلى أميرة شابة على بقية رعايا مملكتي من أفراد كنزي الضخم .

حتى عرشها الصغير كان بانتظارها، فرغم أن جميع الذين لا يُـقَـدِّرونَ قيمة كل قطعة من قطع كنزي الثمين سخروا مني، ومن مقعد السيارة الذي كان ملقـيًّـا على قارعة الإهمال بأحشاء سافرة إلى جانب صندوق قمامة يسكن الشارع المجاور، حين أشفقت على مصيره وحملته معي ليكون واحدا من أفراد

رعية مملكتي ، وتحت حماية حكمي إلى الأبد .. ها هو ينال الشرف بأن يغدو كرسي الأميرة أيضا .

ثم رأيته .. داك الصغير البني القذر، ذا المجسَّين الطويلين، والقوائم الأربعة، يحدِّق في وجهي بوقاحة بلهاء وأنا أطبع قبلة طويلة على رأس أميرتي الجديدة، قبل أن أهم بالمغادرة!!.. والأشد فظاعة أنه كان يطل برأسه من عنق جوف أحب رعايا مملكتي إلى روحي، الدمية التي أضاعت رأسها حيث لا أدري، قبل أن تسمع أحاسيسي صوت ما تبقى منها يستصرخني لإنقاذه بانتشاله من قمامة تقبع أمام دار لا أعرف سكانه .

كيف تمكنت جرأة هذا الصغير القذر على التسلل إلى مملكتي، وأنا الذي أسخو عليها كل يوم بطقوس نظافة لا أسخو بنصفها على جسدي وثيابي ؟!.. ثم من يظن هذا الصعلوك القزم نفسه كي يعلن حربه التسللية على أمن مملكتي، ويغزوها ليفسد فيها ، ويعتدي على سلام شعبي المسكين دون علمي ؟!.. الويل له ..

وأصدر غضبي الملتهب قرار إعلان حرب طوارئ فورية على العدو المتسلل ، وأكد لي ذهني أنه قد حان وقت إشهار سلاحي الذي سخر منه الجهلاء بقيمته، يوم حملته معي إلى البيت قبل بضعة أشهر، وظنوا لابد أن الجنون قد أسرف في التهام عقلي

كي ألتقط عصا مكنسة يدوية عجوز اكتسح ثلثي رأسها الصلع من حيث لا يدرون، ثم أحملها إلى حيث أسكن، دون أن تعبأ شفقتي على شيخوختها بثرثرة ألسنتهم ..

وها قد حانت فرصتها الثمينة كي ترد لي هي هذا الجميل ، دون أن تخذل حسن ظني بصدق ولائها لي ، ولبقية أشقائها من أفراد شعب مملكتي .

لم تلتهم المعركة طويلا من وقتي، حاصرته في عُــقر منطقة تسلله وأطبقت بكفي على الدمية قبل أن يحاول الفرار، وقبل أن ينتبه من ذهوله كان جسده المسحوق بعصا مكنستي تحول إلى فتات يمتزج ببصاق غيظي المتحمس .. ووقفت برأس شامخ لأرى ملامح وجهي الناطقة بزهو انتصاري في المعركة، وأنا قابض على سلاحي بفخر، تطالعني على بقايا عتمة زجاج شاشة التلفاز الذي أسبغت عليه لقب وزير الإعلام في مملكتي ، مذ نفاه الجيران من دارهم إلى الشارع بعد أن تعرضت شاشته لحادث مؤسف أورث وجهه عاهة مازالت تنم عن أثر تاريخ فجيعته.

ازداد امتناني لسخاء الحظ على خطواتي هذا النهار حين وجدت تلك السمينة المزعجة التي عقد سوء الحظ قراني عليها قبل ثلاثين عاما قد تصدقت على إرهاق لسانها السليط بعطلة، على غير عادة وفائها للذة إزعاجي أمام كل وجبة أجد نفسي مجبرًا على تناولها معها. تساءلت أنا ونفسي بارتياب صامت عما إذا كانت ثورتي الغاضبة ساعة انفجار مشاجرتنا أمام عشاء ليلة

البارحة قد علمتها أخيرا كيف تتقن ابتلاع لسانها المسنن. كانت هي المذنبة في حق هدوء الدار حين بدأت تطلق عباراتها الاستفزازية على منطقة تعلم أنّها محرمة من قِبَل روحي، قالت بأعصاب جليدية :

- ابنك سيتزوج ، ولابدَّ له من مسكن .

نظرت إليها لحظة قبل أن أعاود سكب نظراتي على صحني الطافح بحساء الجزر، لكنها كانت مُصِرَّة على إشباعي بغصة أخرى فقالت :

لقد حان الوقت كي تتخلص من وباء خردتك السخيفة التي تحتلُ فناء الدار ، يجب أن نبني حجرة أخرى للولد وعروسه .

ألقيت بصحني على الأرض في غضب وصرخت :

إلا هذا .. كم مرة حذرتك من التدخل في شئون ممتلكاتي الخاصَّــة .

زمجرت بصوت يرعب أفئدة الغيلان :

- لقد احتملت أوساخك السخيفة أكثر من عشرين سنة أيهـــا العجوز الخرف ، لكنني لن أحرم ولدي من تلك الحجرة في ســـبيل رضا نزوة جنونك الأبله .

وقفت وأنا أرتجف حنقا وثرت شاهرًا سبابتي في وجهها، بينما شعرت أن شريانا ينبض في جبيني بعنف وأنا أصرخ :

- أنتم تريدون قتلي ، تريدون موتي ، تُصِرُّونَ على الضغط عليَّ وسرقَتِي، لكن هذا لو حدث فلا تطمحي أن يحدث إلا فوق جُثَّتِي أيتها الحاقدة المُستَبِدة .

صفقت باب الدار بعنف حين خرجت مغتاظا لأجول في الطرقات دون أن أُكمل عشائي.. لا أتذكر كم من مئات المرَّات لسع لسان تلك المزعجة راحة أفكاري بإصراره على مسِّ تلك المنطقة المُحَرَّمة من شئوني ، لكنني أتذكر تماما أنني حذرتها بمثل عدد تلك المرات من مغبَّة اقتراب يدها أو حتى لسانها من حدود مملكتي ، ورغم تحذيراتي قبضت عليها متلبسة أكثر من مرة بمحاولة تطفل يديها ومكنستها عليها عن سابق تصميم وتصور. ولم يذق جسدها غلظة عصا مكنستها على يديَّ منذ ابتلائي بها حظي التعس إلا بعد كل مرة من تلك المرات ، لكن جسدها المُكتَنِز بالشحم أبى إلا أن يكون له رأسٌ متخمٌ بالهواء ، ولم يدرك طريق التوبة عن عنادها في الإصرار على معاودة ارتكاب تلك الخطيئة..

لا أدري ماذا يريدان منِّي هي وابنها بعد أن امتصَّا عصارة حياتي الماضية ؟!، لم يبق لي ما يعيش لأجلي وأهتمُّ بالحياة لأجله بصدق إلا مملكتي وولاء شعبي، وتلك المرأة وابنها البليد لا يكُفَّان عن التخطيط لإضعافي وتجريدي من بقايا معنوياتي، بطردي من فردوسي وتشريد شعبي الذي أقسمت أمامه أنني لن أسمح بأن يغتصب ملكه غيري مادمت حياً ..

عاودت التجسُّـــس عليها ببصري من طرف خفيٍّ ، فأكَّد لي أن زوابعها مازالت غافية إلى درجة تطمئن بأجواء مُستَـــقرة في المنْزل هذا المساء.. تنفَّـــس قلقي الصُّعَداء.. أكملت غدائي بشهية لم تعرف معدتي لها توأما من قبل، ودخلت حجرتي لأعانق وسادتي في قيلولة لذيذة ، بعد أن غرقت خيالاتي في لذة تصور اللاجئين الذين سيدخلون مملكتي هذا المساء،حين أنتشلهم من على قارعة ضياع مجهولة مازالت بانتظار خطواتي.

رأيت نفسي بعد أن سبَـــحت أحلامي في هلام من السواد البارد مغمور ببحيرة أضواء ملوَّنة، تتمايل على ألحان موسيقى راقصة في قاعة باذخة الاتساع، وبنظرة واحدة أدركت أنَّ جميع رعايا مملكتي يتحرَّكون تحت سقفها بسعادة سافرة.. بدت أجسادهم مفعمة بالنشاط ، تكسو ملامحها مظاهر عافية لم أرها من قبل. رأيت الدمية قد وجدت رأسها من حيث لا أدري، والمكنسة عادت شابَّة بشعر كثيف أشقر، أمَّا أميرتي الصغيرة فقد بدت أكبر كثيرا ممَّا كانت حين وجدتها على قارعة الإهمال، كانت رائعة إلى الحدِّ الذي ملأني بالبهجة وأنا أرقص معها طوال ساعات دون أن يلتفت الإرهاق إلى قدمي .

ثم رأيت نفسي جالسا على مقعد السيارة الذي أضحت له رائحة توحي بفخامة عودته إلى بدايات أيام شبابه ، وأكتاف أفراد شعبي ترفعني به إلى حيث شعرت أنني أحلق في غنى عن الأجنحة، وعلى رأسي تاج يشبه تيجان صور رسمتْها أساطير

ثرثرة جدتي، بينما خرجوا بي إلى الشارع وهم يهتفون بحماس شرس: (كلنا نريدك.. كلنا نريدك.. أنت ملكنا وكلنا يريدك)..

وحين لحظة بغتة كنت خلالها ثَملا بنشوة تتويجي، تدفق جحيم من وابل رصاص مجهول النسَب على امتداد الجهات الأربع، وهويت قبل تاجي على مزق جثث أفراد شعبي.

استيقظت فجأة كملدوغ، وكأنَّ همسة مجهولة تشبه فحيحًا بأنفاس ملعونة نفثت على وجهي فأيقظتني بحواسٍّ نشطة التحفز.. رأيت خطوات المرأة البدينة المتسللة خارج الحجرة وهي تمسك مقبض الباب بيدها، وسمعت صوت مزلاج القفل ينْزلق مرَّتين دون أن يُسعفني جسدي بالنهوض بسرعة، وكأنَّ قوَّة مجهولة أوثقت عظامي بقيود إلى السرير، وانتابني حين التفتُّ إلى النافذة المغلقة إحساسُ فأرٍ وجد نفسه بين فكَّيْ مصيدة في قعر جحره !..

فجأة أطلقت القوَّة المجهولة وثاق حركتي، عاند يدي الباب المقفل، وأذهل سمعي صوت ضجَّة مفعمة بالنشاط من وراء النافذة التي تُطِلُّ على فناء الدار، فكاد قلبي يقفز إلى حنجرتي بِهَلع، وركض بي حدسي المرتعش نحو النافذة لأرى .. لم أصدِّق، وكدت أموت .

أخرجت ساقيَّ وذراعيَّ من قضبان النافذة وصرخت بانفعال متشنِّج:

- أيُّها اللصوص، توقّفوا، اتركــوا أشــيائي أيُّهــا الجبنــاء ، أخرجوني من هنا .. لا حقَّ لكم بلمس ممتلكــاتي، لــصوص .. أوغاد.. جبناء.. حثالة .

بصقت عليهم جميعًا خمس مرَّات وأنا أنهال على مسامعهم بطوفان من الشتائم، لكنَّ أولئك العمَّال كانوا يتحركون كدُمى لا ترى ولا تسمع إلا أوامر من سيتخلّى عنها لقب زوجتي حين أتخلّص من هذا الفخِّ.. لقد أتقنَتْ خطّة لعبتها هذه المرة !..

ركضت إلى الباب بأنفاس صاخبة الجنون :

- افتحوا الباب أيُّها الأوغاد، افتحي أيتــها العميلــة القــذرة المتواطئة، افتحي وإلاّ فسترَيْن مني ما لم يَرَهُ بصرك من قبل، افتحــي الباب قبل أن أكسره وأدمِّرك وأدمِّر البيت كلــه، افتحــي أيتــها الدُّبــّة القذرة المجنونة .. افتحي!!

لكنني لم أقدر على كسر الباب .. ولم أقدر على فعل شيء ، ولم أدر باضطرابي ماذا أفعل. كنت أتمزق برؤية دمار مملكتي بصري دون أن أستطيع لها إنقاذا. التفتُّ إلى النافذة فرأيتُ في يد الخائنة نقودا ومحفظة ، ورأيتُ في يد رجل منهم نقودا ومحفظة، لم أكن متأكدا ممَّن باع لمن، ومن اشترى ممن، هل هي التي باعت شعبي وأخذت النقود ؟!، أم هم من باعوها همجية أيديهم في اغتصاب أركان مملكتي وأخذوا الثمن نقودا ؟؟.. لا أدري.. انهلت على الباب صفعًا بقوة جسدي المغتاظ دون أن

يتزحزح .. وانهرت على الأرض بنشيج متشنِّج، وأنا أراها تصفع باب الدار وراء زمجرة عجلات شاحنتهم التي حبسوا بداخلها فلذات متنكرة من روحي .

بين أدنى من عشية وضحاها تحولتُ من رجل ثريٍّ محبوب بشعبي ومملكتي إلى مخلوق فائض عن حاجة مسيرة الكون. مُمَزق بشعور يصرخ في رأسي ليذكّرني بضياع آخر هدف كان يستحق استمرار حياتي لأجله، وقهري يتفاقم كلما رأيت تلك الدبَّة المخبولة تروح وتجيء في حجرات البيت بعد انتصارها عليَّ وتجريدها ذاتي من سلاحها اليتيم ، وترقد ليلا براحة ضمير من لم يخطّط وينفذ جريمة أدَّت إلى إعدام معنوياتي ..

تروح وتجيء بثوبها الأسود الفضفاض كذبابة ضخمة، يشتهي خيالي محاصرة جناحيها بمضرب ذباب هائل ولا أقدر .. صوت طنينها الذي لا يخرس يحفر مزيدا من جنون الغيظ على قهر أعصابي أوصل دماغي إلى ذروة حدود الرغبة في الانتقام قبل ميلاد اليوم الثاني من زوال مملكتي دون أن يرفَّ لضميري جفن، وقبل اليوم الثالث كنت قد نفّذت ما أملاه عليَّ صوتُ رغبتي في الانتقام .

في اليوم التالي، لم أستطع تمالك رغبتي في القهقهة ، وأنا أقود الشاحنة التي اشتريتُها قبل ساعات إلى خارج حدود المدينة، لحظة صوَّرها لي خيالي وهي تركض إلى المطبخ بشعرٍ متقصِّف يتطاير، وعينين جاحظتين، ثم تصبُّ سائل تنظيف البلاط في

فمها وعلى وجهها بجنون حين يبلغها أنني قد بعت البيت بما فيه، وقبضتُ الثمن قبل أن أرحل إلى الأبد .

طرت على الأرض بعجلات شاحنتي، وأحلامي ترفرف فوق خمس قارَّات كلها تَهتف بانتظار قدومي لإنقاذ شعوب جديدة من أشقّاء شعبي المفقود، قبل فوات أوان السخاء على ضياعهم بمملكة تحتضن تشرُّدهم، وتُسبغ عليهم حق اللجوء إلى بطن شاحنتي.. بينما صدى صوت ندائهم لي يتردَّد بلهفته في مسامعي : (نحن بانتظارك.. كلنا نريدك .. كلنا نريدك ) .

# حَظ !

اقتحم أذني صوت فاتن عن غير ترصُّد . لم نكن رفيقتين حميمتين، لكنني ظننتُ دومًا أنَّها أذكى منِّي قليلا لسبب مجهول، وأؤمن أنَّها هي الأسطع شهرة من بين جميع الزَّميلات في معهد التَّمريض الذي ندرس فيه. لذا فقد كانت مُحاطة بتسع زميلات أو أكثر خلال تلك الفُسحة في حديقة المعهد حين قالت :

– البارحة تعلَّمت من جارتنا (أم حمد) كيف أعرف إن كان زوج أيِّ فتاة في المُستقبل سيُحبُّها أم لا، بمجرَّد إلقاء نظرة على خطوط كفِّها .

قالت عائشة :

– ولكن.. أليس ذلك حرامًا ؟

أجابتها ليلى على الفور :

– كلا.. إنَّه لأجل التسلية ليس أكثر ، فنحن لن نأخذ تلك الأمور مأخذ الجِدِّيَّة ، و نُدرِكُ أنَّ علمَ الغيب عند الله وحده في البداية والنِّهاية.

كانت ليلى مولعة بكلّ ما ينبئ عن مُستقبل الحظ ومُشـتَـقّاته . كانت لا تغسل فنجانًا تشرب فيه القهوة التركيَّة قبل أن تجد من تقرأه لها في سبيل التسلية. ولا تفوِّت برنامجًا من برامج كشف الطَّالع على شاشة التلفاز لأجل التسلية . وكان يركبها إدمان مُطاردة تنبؤات الأبراج على صفحات المجلات والصُّحف اليوميَّــة كلّ صباح ، وتسير على خطوات تنفيذ كل ما تأمرها به تلك السطور ، مؤكدة أن ذلك كلّه لا لشيء غير مواكبة مزاج التسلية !! . لذا فقد وافق رأيها في تلك اللحظة مزاج بقيَّة الفتيات اللواتي هتفن مؤمِّـــنات على ما قالته بسرعة، وصفّــقت مريم ببهجة لا تخفى، ثمّ شهرت بطن كفّها أمام وجه فاتن وهي تقول :

- ماذا عنّي أنا ؟.. هل سيُحبُّــني (عريس الغفلة) أم لا ؟

نظرت فاتن إلى كفّها باهتمام قبل أن تهتف بسعادة :

- سيُحبك أكثر مما قد تتصوَّرين ، وأكثر مما تستحقّــين أيتـــها اللعبة الدّلّــوعة !!

عندها قدَّمت لها أمينة كفّها بترقُّب ، فأجابتها بعد أن اتـــسعت حدقَـــتـــاها دهشة للحظات :

- سيُحبـــُّـــك كثيرًا ، والعجيب أنّـــه يبدو لي من خطـــوط يدك بأنّـــه سيكون أجمل من زوجته ، أي منكِ أنتِ !!..

ضحكت أمينة ضحكة طويلة بعينين ومضتا سروراً ثمَّ قالت بلهجة تنم عن المزاح :

- لا بأس .. سأجبره على ارتداء برقع أو نقاب قبل خروجه ، وربَّما أضطرُ لحبسه في البيت إن لزم الأمر!.

صارت الأكفُ النَّاعمة تبسط باطنها أمام بصر فاتن على التَّوالي ، بينما كانت إجاباتها تتواتر على مسامعهن بمرحٍ يُضخِّم في أعماقهنَّ التفاؤل :

- سَيُحِبُّكِ دون شك .

- سَيُحِبُّكِ ..

- سَيُحِبُّكِ ، ويعتبرك قطَّته المُدللة .

- ستكونين أميرته ، وحبَّه الأول والأخير..

- سَيُحِبُّكِ

- سَيُحِبُّكِ

- سَيُحِبُّكِ بكلِّ تأكيد .

- سَيُحِبُّكِ أكثر من أهله ونفسه والناس أجمعين.

- لولا إيمانه وخوفه من ربِّ العالمين، لاعتبركِ معبودته الصَّغيرة !! .

لم أكن أؤمن باستبصار المستقبل ، لكنني للحظة شعرت أنني أوافق ليلى في نظريَّتها الشهيرة بعنوان التسلية، وانتابتني رغبة مُفاجئة في وضع كفي بين يدي بصر فاتن هذه المرة. وضعت كتاب (علم التشريح ووظائف الأعضاء) الذي كنت أقرأ فيه - قبل أن يقتحم صوت فاتن مسامعي فيشرد اهتمامي عن متابعة سطوره - على مقعدي، واقتربت أكثر من مجموعة الفتيات التي كانت أعدادها تتصاعد دقيقة بعد أخرى . وقبل أن أطلب من فاتن قراءة خطوط يدي كانت قد سبقتني إليها موزة بكفّها المكتنزة، دون أن تتفوّه بحرف.

كان تقدُّم موزة أشبه ببادرة من بوادر تاريخ المفاجآت في معهدنا، فصمتها الدَّائم لم يكن يميل لتكوين الصَّداقات أو المُشاركة في الأحاديث والنَّشاطات غير الإجباريَّة، ولهذا كان من النادر أن يشعر بوجودها أحد رغم ضخامة جسدها الممتلئ . ولذا فقد ألهب تقدُّمها من فاتن موجة ترقُّب بقيَّة الفتيات لمُخاض موهبتها هذه المرة أكثر، فتشبَّثت أبصارهن ببصرها الذي غدا يمسح خطوط تلك الكف بصمت.

طال انتظار بزوغ الحكم المنشود من بين شفتي فاتن دقيقة أو أكثر هذه المرة، وبدا على وجهها امتقاع يتفاقم لحظة بعد أخرى، وأخيرًا رفعت رأسها وهي تُثني أصابع موزة على بطن كفّها برفق وقالت بصوت آسف :

- أنا آسفة.. لكنني أظنُّ أنه.. قد لا يحبّك.

صعقني شعور أشبه بفجيعة مُباغتة. وكأن دلوًا من الماء المُثلّج صُبَّ على أمّ رأسي وصفَعَتني صلابة جدار وزُجّ بجسدي في بطن فرن وتمّ سحلي على أرضٍ موحلة في لحظة واحدة !!.. أحسست وكأنّ تلك الجُملة قيلت لي أنا نفسي وليس هي، وتمنّيت لو أنّ فاتن قالت لها ما لا يوافق توقعاتها الهشّـة ولو لأجل إرضاء خاطر التّسلية. خبا وميض الأمل المتوثب في نظرات موزة على الفور، ومضت إلى زاويتها المنعزلة بذراعين متراخيتين وظهرٍ بادره انحناء لم يكن من قبل، بينما عدت أنا أدراجي لألتـقط كتابي ، وأبتعد به إلى مقعد بعيدٍ عن صوت مجموعة التسلية ، حفاظًا على ما تبقّـى من حظّي.

# أعـتَـرِف !

انتهى الأمرُ. لم يعد بوسع استسلام عنادي غير الاعتراف بأن مقاومتي لهذا الهوس الجديد لم تعد قادرة على سماع صوت عناد عقلي، فتهاوى رسوخه على مبدئه القـــديم. و لم يعـــد لي غـــير الانسياق وراء إلحاح همس القرار الذي اتخذته عـــاطفتي، بعـــد انتصاره اليوم على أيام مقاومتي الماضية لجبروت سُـــلطَـــانه .

رشفت رشفة من كوب الشاي الذي وضعه خادم المقهى أمامي، قبل أن أرجع بظهري إلى الوراء في جلسة أكثر اعتدالاً. وأحدِّق في حركة المشاة خارج المقهى، من نافذة الزاوية التي تعمدت اختيارها بعيدة عن زحام الزبائن. قبل أن يشرد بصري متصلاً بخيالات أفكاري .

حسنٌ ، مادام اعترافي لنفسي وحدها فسأعترف .. لم يحدث الأمر فجأة . و لم يخف عليَّ يوماً من أيام العامين الماضيين تشبث نظراتها بكل خطوة أخطوها.. على استحياء في الشهور الأولى ، ثم بدأت عيناها تنبضان بوضوح لا يحتاج تفسير معناه إلا أعمى . لكن عنادي تعمَّد التعامي. أعترف بهذا أيضاً. وأعترف أن قشرة الرزانة واللامبالاة مني كانت تخفي سروراً ممتلأ بإحساس مغرور في صدري .

ليست الأولى التي تزحف نظراتها حذو خطواتي، ويركض اهتمامها وراء أخباري، وتبتكر محاولات تنافس المعجزات كي تلقاني في موقف يتنكر في ثوب صدفة. ولن تكون الأخيرة التي لا تدَّخر محاولة للفوز بصداقة شقيقاتي، والتعرُّف إلى كلِّ أنثى من بنات أسرتي و أقاربي، متسللة بحجَّـــة تلك الصداقات إلى سماع كل حدث قد تقـــتَـــنِـــصه أذنها من أحداث حياتي.

كثيرات سبقنها إلى ذاك الجنون، حتى صارت أحاسيسي تَـــتَـــلَـــقَّـــاه بغرور لا يعرف الشكر. فكيف انتصرت تلك النصف مجنونة وحدها من بينهن جميعاً دون أن تدري، وقبل أن أدري أنا ؟.. أهوَ إصرار جنونها العنيد على مدى عامين أمام انهيار صبر الأُخريات بعد شهور من إهمالي أو أسابيع ؟.. أظن ذلك.. بل أعترف به.. عنادها الهادئ ، الراسخ في صبر إصراره, الذي لا يسلك مسلك إزعاج الإلحاح ، هو الذي لفت بصر اهتمامي نحو وجودها بعد عامين من انفرادها بشعور أصابتني عدواه الأولى قبل أيام .

إلى أي حد طمس العمى بصيرتي عن هالة من الحب والجمال والذكاء والخلق النادر في أيام هذا العصر! .. كم كنت مخلوقاً مغفلاً بليد الحس والوجدان إذ فرَّطتُ بسعادة كانت بانـــتـــظاري طوال الأيام الماضية .. أي خبلٍ ذاك الذي صوَّر لي أنهَا ليست سوى إحدى عابرات السبيل - بعواطفهن التي لا تعني سواهن - في طريق حياتي ؟.. لولا أنها كانت صادقة الحب

لي لأعرضت عني بضجر يأسها من اهتمامي كما سواها. لكن عاطفتي الجديدة نحوها حسمت القرار أخيراً. سأتقدّم لخطبتها من أهلها غداً ، ثم نعقد القران وحفل الزّفاف خلال أيام هذا الشهر ، أو الشهر الذي يليه على أبعد تقدير .

لا أخشى غير ردود أفعال قلبها لحظة انصباب مفاجأة الخبر على جنون عشقه لي . الإغماء أقل ما قد يستولي عليها في تلك اللحظة التي لا أكاد أشك في أنها غدت تظنها – بعد صبرها الطويل – من مستحيلات المعجزات .

بلغت من عزمي على مقابلتها قريباً مبلغ الثقة. وقبل أن أنهض من مقعدي مغادراً للقائها أبصرت وجه حازم عبد الرزاق مُـــقبلاً على طاولتي. صديق قديم وزميل من زملاء أيام الدراسة. له من الخلق والوسامة واللباقة الاجتماعية فوق موهبة لطف الألفة ما ملأ حياته بالمعارف والأصدقاء على اختلاف الأعمار. ألقى صوته عليَّ التحية نابضاً بنشاط سرور نادر، قبل أن يحتل المقعد المقابل وهو يقول :

– بارك لي ..

قلتُ بابتسامة متسائلة :

– مباركٌ .. لكن على ماذا ؟

– أخيراً ابتسم برج الحبِّ لقلبي .

قلت بمودة باسمة :

– أي خبر سعيد ! ..

أجاب بعينين يتدفق من نظراتهما نشاط بريق السعادة :

– الحمد لله .. وأنت مدعو لحضور حفل عقد القران بعد غد ، وحفل زفافي يوم عطلة خاتمة الأسبوع المقبل .

– بهذه السرعة ؟!

– أي سرعة يا رجل ؟!!.. لي عامان من الصبر، وقلبي يَتَقَلْقَـــلُ بين براثن لهفة الانتـــظار. يجب أن أنتهز معجزة التـــفات اهتمامها نحو جنون قلبي ، وأسرع بتوثيق ربط مصير مستقبلها إلى مُـــسْتَقْبَلِي قبل أن يسبقني إلى أهلها سواي .

قلتُ بصوت مفعم بعدوى توثب نشاط سروره :

– يالها من سعيدة حظ !

– بل أنا السعيد يا صاحبي .

قلتُ مُسرعاً بفضول متفاقم :

– بمن ؟

أجاب بعجلة من كان يرجو سماع هذا السؤال في كل لحظة:

– سارة .. سارة عادل أحمد ناجي . ابنة جاركم أستاذ الفيزياء في المعهد الـــتِّقَنِيِّ .

أغمي على نبضات قلب الرجل الذي يسكنني لحظة . سارة!..سارة !.. سارة!!.. لا .. ليست سارة التي خطرت على

بال أفكاري قبل قليل ، ليست سارة التي أريدُها . هل مسامعي تعيش هذيان كابوس ينتقم من خواطر عواطفي الأخيرة ؟ ، أم أنني مجنون ؟! .

قال بصوت مشحون بنغمة حالمة :

– لا شك أنك رأيتها مرات بحكم الجوار . رائعــة .. أليــس كذلك ؟

بذلت جهداً روحياً يشبه نزع الاحتضار كي أحرّك شفتي لارتداء ما يشبه ابتسامة صفراء ، وأقول بصوت يحاول إخفاء نغمة مرارته :

– نعم .

– بل أكثر .. مذهلة ، سيدة المذهلات على وجه الأرض .

– نعم .

تنفس براحة لم تفطن إلى انقلابات أعماقي، قبل أن يقول بصوت متوثب البهجة :

– كم أنا سعيد .

– مباركٌ .

أفشت تلك الكلمة صوتاً مطفأ الحيوية على الرغم من محاولاتي للسيطرة على تمرد حنجرتي، فقال لي باهتمام من لمح أثر تغير على ملامحي :

- ما خطبُـــكَ يا عماد ؟ .. تبدو على غير ما يرام !

أجبتُ ببعضِ الوهنِ :

- لا شيء . ألمٌ مفاجئ احتل أمعائي فحسب .

ثم نهضتُ وأنا أقولُ :

- معذرة .. أشعر بحاجة للعودة إلى منزلي .

- وجهك يزداد امتقاعاً ! .. هل تستطيع الذهاب بمفردك حقاً؟

- نعم .. نعم . أظنني بحاجة لبعض الراحة ليس أكثر .

خرجت من المقهى وفي صدري رجلٌ يتهالك عجزاً. لم أكن سوى أحمق كبير بذّر بلامبالاته أيام عامين من اهتمام إنسانة هي أولى بالاهتمام ليستيقظ من غروره بعد فوات الحب. وأعترف.. أنني أستحق ثمن حماقتي .

## الفهرس

# المُؤَلِّـفَـةُ فِـي سُـطُـور

- زينبُ علي مُحمَّد البحراني .
- من الأقلامِ الشابةِ في ميدانِ القصَّـةِ القصيرةِ والطويلة .
- منَ الفائزينَ في مُسابقةِ (بدايات) لتقديمِ المواهبِ الشَّـابَّـةِ في دورتِـها الخامسة /٢٠٠٦م عن دارِ ليلى للنشرِ والإعلانِ في مصرَ ، عن قصَّـتِـها (فُـقَّـاعَـة عِـطر) ، ونُـشِـرَت قِـصَّـتُـها الفائِـزَةُ مَعَ أعمالِ بقيةِ الزملاءِ الفائزينَ في كتابِ مُـشْـتَـرَكٍ بِـعُـنـوَانِ : ( ليلة القبض على ميت)
- نالت مُشاركَـتُـها القصصيَّـةُ حظَّ التنويه من قِـبَـلِ لجنة تحكِـيمِ مُسابقةِ دارِ الرأي للنـشرِ في سـوريا (الـدورة الأولى- ٢٠٠٦م).
- فازت بـ (جـائزة إنانـا الكُـبرى للإبـداع – الـدورة الأولى٢٠٠٧م) .. عن قصَّـتَـيها : (رقصة التخمة) و (أوغاد).
- نالت مُـشاركتُـها المركزينِ الثاني والثالثَ على التـوالي في مُسابقةِ أديبِ المُستقبلِ (فرع القصة) التي أطلقَـتها لجنةُ طبـيـبِ المُستقبلِ المصريةُ عام٢٠٠٧م ، عن قصَّـتَـيها (فتاة البـسكويت) و(كلنا نريدك) .

- نالت مُشاركتُها الجائزةَ التقديريَّــــةَ في مـــسابقةِ القـــصَّـــةِ والنَّـــقدِ القصصيِّ في العراق عام ٢٠٠٧م
- لها نصوصٌ قصصيةٌ منشورةٌ على صفحاتِ مجلة (أقلام جديدة) الأردنيةِ ، وأخرى في عددٍ من المجموعاتِ القصصيةِ المُـــشتركةِ مـــع كتّـــاب آخرين.
- يمكنُ التواصلُ مع الكاتبةِ ومراســلتها عـــبرَ صفحتـــــها الشخصيَّـــةِ على موقعِ (فيس بوك) بزيارةِ الرَّابطِ التالي :

http://www.facebook.com/profile.php?id=٦٥٣٩٢٩٤٥٠

تحتَ اسمِ : **Zainab Al-Bahrani**